رواية

رائحة البحر

ريم بسيوني

مكتبة نوميديا 201
TELEGRAM@NUMIDIA_LIBRARY

طبعة ثانية

دار البستاني للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠


رائحة البحر


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

د. ريم بسيوني

رائحة البحر

رواية



فهرسة أثناء النشر إعداد دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية – إدارة الشئون الفنية

بسيوني، ريم
رائحة البحر: رواية / ريم بسيوني. ط 2. –
القاهرة: دار البستاني للنشر والتوزيع، 2009.
240 ص، 20 سم
تدمك 978.977.450.029.9
أ – القصص العربية
أ – العنوان
813
رقم الإيداع: 2009/23478

الكتـــــاب : **رائحة البحر**
رواية

المؤلـــــف : **ريم بسيوني**

الطبعـــــة : الثانية

النـــاشـــر : **دار البستاني للنشر والتوزيع**

29 شارع الفجالة 11271 القاهرة – مصر
4 شارع علي توفيق شوشة – مدينة نصر – 11371
هاتف: 25908025 / 59153152 فاكس: 22623085
E-mail: boustany@boustanys.com
Web-site: www.boustanys.com

© **جميع حقوق النشر والطبع والترجمة محفوظة للناشر**

رقـــم الإيـــداع : 2009/23478
الترقيـــم الدولي : I.S.B.N. 978-977-450-029-9

إهداء

إلى كل مصرية بداخلها رانيا

رائحة البحر

أيتها الشواطئ أخبري أبي الحبيب
أني أنا أوروبا قد تركت وطني
راكبة على ظهر ثور
وهذا الثور هو مغتصبي وبحاري
وأظن أنه هو رفيق فراشي

من ملحمة الدنيوسياكا للشاعر اليوناني نونس
(من أسطورة إغريقية قديمة عن أوروبا وزيوس)

الفصل الأول

أسندت الدكتورة چيهان رأسها على الحائط البالي القديم لثوان بلا إرادية.. ثم انتفضت في فزع...

لا.. لا يمكن أن تسند رأسها على هذا الحائط المقزز.. نظرت إلى يديها.. لم تغسلهما منذ خمس دقائق.. عليها أن تغسلهما الآن..

ذهبت إلى دورة المياه دون أن تنظر حولها. غسلت يديها بالماء ثم بالمطهّر ثم خرجت.. سمعت صرخات سيدة من آخر الممر.. انقبض قلبها.. شحب وجهها.. ظهر عليها الفزع.. جرت في الممر القديم.. فمنذ شهرين وهي تعمل في هذا المستشفى الحكومي ومنذ شهرين وهي تقاسي في هذا المكان المرعب..

كل شيء غريب.. المرضى.. الممرضات.. الأطباء.. عادت من بريطانيا بعد دراسة خمس سنوات لتعمل هنا؟

الفكرة أصابتها بالاشمئزاز..

جرت في الممر ولم تشعر بنفسها وهي تصطدم بدكتور علاء.. صدمة قوية..

شهقت.. التقت عيونهما.. خرجت منها رجفة بلا إرادية.. ابتسمت.. قائلة: آسفة يا دكتور

ماذا يفعل بها هذا الرجل؟

تشعر بعدم ارتياح وهو أمامها.. شموخه.. عيناه الثاقبتان.. ثقته بنفسه

تفحص وجهها.. رجفة أخرى خرجت منها.. فليكف عن النظر إليها...

قال في قلق: هل أنت بخير يا چيهان؟

- نعم ولكن سمعت الصراخ؟

إبتسم من جديد: هذا ما يقلقك.. لا تقلقي...

- لماذا تصرخ هذه المرأة؟ هل مات زوجها؟

سار.. سارت بجانبه.. رفعت عينيها لعينيه.. قال في هدوء: زوجها كسر ذراعه فقط

- ولماذا تصرخ إذن؟

رفع كتفيه وهو يدخل حجرته: لا أدري.. كنت مثلك في البداية لا أدري لماذا تصرخ النساء هنا.. عندما عدت من بريطانيا منذ ست سنوات كنت مثلك

قالت متحدية: وتأقلمت؟

فكر قليلاً.. جلس على مكتبه: ربما.. بعض الشيء..

هوت إلى مقعد قائلة: كيف تعمل هنا يا دكتور؟

قال في تلقائية: أين أعمل؟ لقد درست في بريطانيا لأعود إلى مصر وأعمل هنا.

قالت في دهشة: لماذا لم تفكر في الاستقرار في بريطانيا؟ أنا أعمل هنا منذ شهرين فقط وأفكر في العودة إلى بريطانيا.

قال فجأة في حماس: تشربين شاياً يا چيهان؟

قالت مسرعة: لا شكراً.. هل رأيت حالة المطبخ والأكواب؟

نادى على الساعي: عم عبد السميع...

ثم نظر إليها: نعم رأيت حالة الأكواب.. أنا لا أشرب شاياً في أكواب المستشفى.. في الحقيقة.. لا أشرب الشاي في كوب أبداً.

فتح الخزانة المقابلة لمكتبه.. أخرج فنجانين.. نظرت له في فرح...

جاء الساعي فقال: عم عبد السميع.. إثنين شاي.. بالحليب وبدون سكر.. ولا تنسى.. أولاً تضع الحليب ثم الشاي.

قالت في حماس: شاي إنجليزي..

هز رأسه بالإيجاب: هكذا أشرب الشاي دائماً

***

رفعت يديها إلى السماء وقالت: يا رب.....

انهمرت الدموع من عينيها كما لم تنهمر من قبل: والنبي يا رب... والنبي خليه يحبني... والنبي يا رب! أتوق إليه. ولا أجده ولم أجده يوماً...

عندما كانت رانيا في مرحلة المراهقة سألتها إحدى صديقاتها: ترى أمن الأفضل أن تتزوجي رجلاً يحبك أم رجلاً تحبيه؟

كانت إجابتها سريعة: بالطبع رجل أحبه... كيف أقبل رجلاً لا أحبه؟ ما الفرق بيني وبين الغانية في هذه الحالة؟

نعم.. تحققت رغبتها.. وها هي تذوب في حبه.. كل دقيقة.. وتشعر به.. يعزها ويحترمها.. يقدرها.. نعم يقدرها.. ولكنه لا يحبها.. وما الحب.. ولكم كانت تتمنى أن يصرخ في وجهها.. أن يكون إنساناً عادياً.. ولكن يحبها.. ليته كان بخيلاً.. نعم لو كان بخيلاً ويحبها كانت ستكون

اسعد.. أو ربما لو كان غليظ الطباع.. نعم غليظاً كزوج أختها ويحبهـا.. ولكن زوجها مثالي.. زوجها لا يخطيء ولم يخطيء أبداً.. ولا يحبها!

ماما.. ماما.. ماما

يزداد الصياح تدريجياً.. وكأنه يخرج من ماكينة محكمة الأداء.. وليس لها تاريخ صلاحية.. بل صالحة إلى ما لا نهاية!

ارتجفت يدها.. من قال إن الرجل يكتشف أنه يحب زوجته في النهاية؟ ولكم تتمنى أن... ماذا تتمنى؟

قالت لنفسها في أسى: يا فرحتي.. يا بختي الأسـود.. زوجـي يحـب أخرى.. ثم ماذا؟

لن يتركني.. أنا أعرفه

هل سيخونني؟

لا.. إنه مثالي.. لن يرتكب الخطيئة

وماذا يزعجها في هذا إذن؟

وماذا يخيفها في هذا إذن؟

لا تستطيع.. لا تستطيع تحمل هذا ....

تشعر به يتوق لأخرى.. تشعر به يتعذب في صمت.. تشعر بقلبه يخفق لغيرها.. ولا تستطيع التحمل.. ومن يستطيع؟

أحياناً تتمنى أن يخطئ.. أن يزني.. ثم يملها.. ثم يتركها.. ثـم يعـود ذليلاً ويبكي بين يدي زوجته.. سوف تسامحه. ربما.. لا تدري.. ولكنهـا تعرف أنها لن تسامحه الآن! لا لن تسامحه على قلبه الذي يختلج لغيرها.. لن تسامحه على ليلتين قضاهما يفكر في أخرى.. أبداً لا تستطيع

لا.. لا.. لن تيأس

أين فيلم الوسادة الخالية؟ نعم سوف تشاهده.. ويوماً ما سيكتشف زوجها أن حبه لچيهان كان وهماً... وحبه لزوجته هو الحقيقة.. نعم.. هذه هي النهاية الطبيعية.. سوف تدعو الله من اليوم.. سوف تدعو الله.. ربنا لا يرد دعوة المظلوم.. وهي.. لم يظلمها.. ليته ظلمها.. لم يفعل! ولن يفعل.. فهو مثالي!

غداً.. عندما يصيبها المرض.. سيشعر بقيمتها.. نعم لا يستطيع أن يعيش بدون زوجته.. لا يستطيع...

لم يصبها المرض.. ربما عليها أن تدعو الله أن يصيبها المرض.. من الغد سوف تدعو الله بهذا....

وماذا لو أصابها المرض ولم يحبها؟...

لا ربما عليها أن تغير نفسها.. أن تثقف نفسها وتصبغ شعرها أشقر وتتبع حمية غذائية وبعد عام سوف تصبح أجمل من چيهان.. وماذا عن لون بشرتها؟

من الغد لن تذهب إلى السوق في الصباح فشمس الشتاء أشد وأقوى من شمس الصيف!

ربما لو كانت أكثر بياضاً..

هذه غلطتها.. تأكل كثيراً.. و"تخرج في الشمس كثيراً".. ولا تصبغ شعرها

من الغد لن تأكل أبداً....

ثم هي غبية.. نعم.. أين هي من چيهان؟ چيهان طبيبة وهي رانيا خريجة قسم لغة عربية.. وليتها تتذكر أي شيء مما تعلمت!

لن تستطيع أن تصبح طبيبة في الثلاثين.. فات أوان هذا.. ولكن ربما عليها أن تثقف نفسها.. تقرأ في السياسة.. وشيء آخر كيف يحبها وهي أحياناً تتلعثم أمامه؟

لم تعد تشعر بالراحة وزوجها بالبيت.. بالطبع ينظر لها ويقارن بينها وبين چيهان.. بالطبع يجدها غبية.. بالطبع يتحملها من أجل أبنائه....

لا.. لن تتغير.. ولن تصحو صباحاً وتجده يتوق إليها هي.. ولكن الله قادر على كل شيء.

دقائق وسوف يأتي.. ستتكلم معه.. نعم فهي لا تتكلم كثيراً.. ربما عليها أن تتكلم أكثر.. وستطبخ له.. ستفعل.. ربما لا يحب طعامها!

دخل في هدوء نظر لها وابتسم.. ها هو يقف أمامها.. طويلاً.. وسيماً.. جذاباً.. شاباً.. لماذا يدفن نفسه معها؟ ليست في وسامته.. ولا طوله ولا تملك عقلاً كعقله.. ستسأله ماذا فعل اليوم.. سيحبها لو سألته ماذا فعل اليوم: علاء.. كيف حالك اليوم؟ كان يوماً شاقاً في المستشفى؟

جلس وهو يخلع چاكتته: كيف حالك أنت يا رانيا.. لا لم أذهب إلى المستشفى اليوم. كان عندي محاضرة في الجامعة.

لماذا تشعر بالارتباك.. إنه زوجها.. منذ خمس سنوات وهو زوجها... لا تحب الحروب.. ولا تدري كيف تكسب تلك الحرب: علاء.. اليوم قرأت كتاباً جديداً عن.. الطب

نظر لها في دهشة

ها هي تلفت انتباهه!.. سوف يحبها بعد أسبوع سترى الحب في عينيه

– ما اسم الكتاب؟

- هل نأكل أولاً؟

قال في حماس: أخبريني عن الكتاب أولاً.. عن ماذا يتكلم؟

- عن الطب البديل هل تعرف إنه يمكنك معالجة القلب بأعشاب البحر؟

خرجت منه ضحكة وقال في ذهول: ماذا؟ ما اسم هذا الكتاب

يا رب! ها هي تصبح أضحوكة أمامه.. سيسخر منها.. سيفعل.. كيف تتكلم عن القلب مع دكتور قلب.. فلتتكلم في شيء تفهمه إذا كانت تفهم شيئاً.. ستتأخر مهمتها شهورا بسبب تلك الغلطة!

- ماذا فعلت اليوم؟

- ماذا بك يا رانيا لقد قلت لك كان عندي محاضرة.. أين الأولاد لقد وحشوني اليوم

- عند ماما.. أريد أن.. أن.. علاء.. لقد طبخت لك سمك اليوم. تحب السمك أليس كذلك؟

قام وطبع قبلة على وجنتها في تلقائية: شكراً يا حبيبتي

حبيبتي! الكاذب.. لا زوجها عنده عيب إذن.. هو يكذب.. هي ليست حبيبته.

قبضت يدها في غيظ وقالت من جديد: لم أطبخه أنا.. أنا جهزته.. ثم بعثت به إلى الفرن حتى يشوى هناك.. لا تخف بالطبع غطيته قبل أن أبعث به إلى الفرن.. لم يره أحد.. إلا إذا كان ابن البواب رآه.. فتح الغطاء ونظر للسمك.. ولكنه صبي طيب.. وغلبان حقاً.. علينا أن نعطيه راتبا أكبر.. مسكين يعمل ليلاً نهاراً.. و...

كان ينظر لها.. بالطبع يقارن بينها وبين چيهان.. چيهان تتكلم معه عن مشاكل مصر.. عن الفقر.. عن المستشفى.. ورانيا تتكلم عن السمك المشوي....

لا مهمتها ستتأخر سنوات!

لم يقاطعها.... ليته قاطعها!

كان يستمع في صبر.. صبور زوجها هذا.. كيف يتحملها؟ لماذا يتحملها؟ لماذا لا يصرخ في وجهها ويقول: رانيا أنا لا أحبك لم أحبك يوما! أنا أحب الدكتورة چيهان.. ولن أحتمل من أجل أولادي! لا أنا لم أزل في منتصف الثلاثينات.. لن أعيش نصف عمري معك وأنا لا أحبك!

لا لم يقل هذا!

ليتها تهتم بالسياسة ومشاكل المجتمع....

وضع يده على كتفها في رقة: رانيا.... هل أنت بخير؟ مريضة أم ماذا يا حبيبتي؟

فليصمت إذن! لا تريد الكذب. تكره الكذب!

– ما أخبار المستشفى يا علاء؟

قال من جديد: لقد قلت لك.. لم أذهب إلى المستشفى اليوم

– وكيف.. كيف حال چيهان؟ ربما علينا أن ندعو چيهان لعيد ميلاد أحمد ما رأيك؟

قال في لامبالاة: نعم يمكننا أن ندعوها إن أردت ولكن ربما من الأفضل أن ندعو أصدقاءه فقط.. ثم أعتقد أن زوج چيهان مشغول ...

قالت مسرعة: تأتي دون زوجها.. إنها مثل الأخت چيهان هذه.. تدخل القلب حقاً.. طيبة وبنت ناس!

نظر لعينيها وكأنه لا يفهم بالضبط ماذا تقصد ثم قال في تلقائية: وأنت أيضاً طيبة.. أنت أطيب من چيهان يا رانيا.. أنــت أم أحمــد ورامـــي.. وزوجتي وحبيبتي.. أنت من وقف معي وشجعني لولاكي.. لما كنت

اختنقت الكلمات في حلقها.. زوجها ليس بغبي.. هو يفهم وهي تفهــم. وكلماته أسكتتها.. ولم تتكلم في هذا الموضوع.. لا لم تفعل...

عندما جاء الليل..

أغمض زوجها عينيه والشوق يتسرب إلى نفسه.. كيف له أن يحب... لا لن يحب.. أمسك برأسه.. بالطبع لن يحب.. زوجته هي الكمال بعينه.. وما الفرق بين الإنسان والحيوان؟ أحدهما يسيطر على مشاعره...

وهل يحب زوجته.. وهل أحبها يوماً؟ لا يدري ربمـــا.. ربمـــا لا.... تزوجها بعقله.. لا يحب هذه القصة المكررة.. رجل متزوج يحب امـــرأة متزوجة! ما أبشع هذه القصة!

همست زوجته في رقة وحنان.. نعم حنانها لا يوصف.. زوجته هـــي الحنان المجسم: علاء.... هل أنت بخير؟ لا تريد أن تنام؟

ربت على كتفها.. ابتسم: أظننا نحتاج إلى أجازة يا رانيا

هذا الشعور الذي يتسرب إلى معدته فيقطعها.. ماذا حلّ به؟ هل جـــن؟ أين عقله؟ موجود.. وسيبقى للأبد.... سيبقى...

***

– زوجك يا رانيا.. يا سلام على زوجك يا رانيا.. يا ليت حظ أختــك مثل حظك.. ولكن الدنيا لا تعطي كل شيء.. أنت تستحقين كل خيـــر يـــا

ابنتي.. متدينة ومتعلمة و"ست تستر" يا ليت أختك تتعلم منك كيف تحافظ على زوجها.. بينك وبينه "عشرة طيبة".. كل يوم أدعو الله لك يا ابنتي.. يا رب "يهدي سرك ويخليلك جوزك."

وضعت رانيا الكيس الكبير المليء بالحلوى والجاتوه على المنضدة وقالت لأمها: شكراً يا ماما.. علي أن أعود للبيت فعلاء سيأتي اليوم ليتغدى معي أنا وأحمد ورامي

فتحت باب سيارتها في فخر.. اشتراها لها زوجها.. كريم وطيب وحنون وأصيل ومتعلم وناجح و.. وهي؟

لماذا هي؟

لا تدري...

عندما جاء ليعالج والدها منذ ست سنوات ورآها أصبح صديق العائلة وطبيب العائلة.. كانت أجرة كشفه هينة.. ووالدها كان موظفاً بسيطاً في إدارة الجامعة.. أصبح علاء يتردد عليهم.. ثم ماذا؟

يوماً.. في يوم مشمس وجميل طلب الزواج منها!..

وشعرت بنفسها سندريللا يختارها الأمير من بين كل الأميرات.. لماذا هي؟

لماذا لم يختار زميلة له؟ لماذا لم يتزوج من بريطانية؟ لماذا هي؟

لا تدري.. أحبته.. ومن لا يستطيع أن يحب علاء؟

لا يوجد امرأة في الإسكندرية لا تحسدها على علاء.. وفي حي الإبراهيمية حيث تسكن مع علاء.. الكل يحسدها على علاء.. كل الجيران تحبه وتقدره.. فلديه مبادىء ماتت منذ زمن.

عندما عاد من بريطانيا.. عاد كالقائد الجسور.. عاد ليعمر بلاده

ولماذا هي؟

لم تسأل.. وهل يسأل الفقير لماذا اختاره الغني ليعطيه كل ثروته قبـل أن يموت؟ وهل يسأل المريض لماذا يأتي الدواء قبل أن يموت بلحظـات فيشفى دون ألم؟

حسدتها أختها وصديقاتها وجيرانها.. وكل الناس

أما هي فمنذ خمس سنوات وهي تحاول.. كل يوم.. أن تجعـل عـلاء يحبها

كلما دخل عليها شعرت بالارتباك والخجل.. فهي ضئيلة.. تافهة وهـو كبير.. كبير جداً

ولكنها تشعر بالأمان.. نعم تشعر بالأمان.. فقد أنجبت الولـدين أحمـد ورامي.. ومن تنجب الولدين لا تخاف.

سمعت صوت الباب يفتح في بطء والأطفال تصرخ.عليهـا أن تجهـز الغذاء.. ربما لو كان الغذاء لذيذاً سوف يحبهـا.. فلتـتعلم كيـف تصـنع البسبوسة.. لا يمكن أن يحبها زوجها لو لم تصنع له البسبوسة!

قال في رقته المعهودة وهو يطبع قبلة على وجنتها: رانيا.. أنا آسف.. عليّ أن أذهب إلى المستشفى الآن.. لن أستطيع أن أتغدى.. سأتصل بـك من هناك

ظهر عليها الإحباط وقالت في رجاء: فقط.. كل أي شيء

أمسك بحقيبته وقال مسرعاً:لا أستطيع.. سأتصل بك...

خرج متجهاً إلى المستشفى

***

ظهرت الحيرة على وجه الدكتورة الجميلة وقالت: دكتور عــلاء.. لا أدري ماذا أفعل.. لا أدري.. هذا المكــان غريــب.. الرجــل يمــوت.. سيموت.. وهؤلاء الممرضات لا يفعلن شيئاً سوى الأكل والضحك طــوال الوقت.. والقذارة هنا.. يا إلهي.. أين احترام آدمية الإنسان؟ لم أتعلم هــذا في بريطانيا.. كيف تعمل هنا؟

لم ينطق.. اتجه إلى حجرة الممرضين ثم قــال فــي جفــاء لإحــدى الممرضات: أين كنت إذن؟ مريض بالكبد الوبائي.. كيف تتركيه وحده كل هذا الوقت؟.. لو مات.. هل تعرفين ماذا سأفعل؟

ارتجفت الممرضة وقالت في خوف: دكتور علاء لقد تركته دقائق و...

قالت چيهان: ماذا ستفعل الآن؟

لم يسمعها. ذهب إلى المريض. بقى معه بعض الوقت. وهي تشاهده.. تنظر له بإعجاب.. وما أن انتهى من إعطائه المحاليل حتى نظــر إليهــا وقال: آسف يا چيهان ماذا قلت؟

قالت في ازدراء وهي تسير بجانبه إلى حجرته: كيف تعمل فــي هــذا الجو؟.. لقد كنت أظن نفسي سأغير شيئاً.. سأفيد أحداً...

قاطعها في ثقة: ستغيرين الكثيــر وســتفيدين الكثيــر.. الصــبر يــا چيهان..الصبر.. عندما عدت من بريطانيا شعرت بالإحباط عاما ربما.. ثم بدأت أتأقلم.. لا يجب أن يكون عندك توقعات كبيرة في البداية.. أنظــري للإنسان على أنه إنسان قدرته محدودة.. مشكلتنا الفقر يا چيهان.

ولكن چيهان لا تعرف الفقر ولا تعرف لماذا يوجد الفقر.

قالت في يأس: وهل سأستطيع أن أتأقلم.. حتى زوجي...

صمتت لحظات وهي تنظر إليه ثم أكملت: حتى زوجي يجد صــعوبة في التأقلم فقد عاش طوال حياته في بريطانيا.. و.. زوجتك؟.. كيف حــال رانيا والأولاد؟

إبتسم وقال: رانيا بخير.. ولكني أشعر بكم هي وحيدة.. إنهــا بالكــاد تراني.. كثيراً ما أشعر بالذنب.. لا أدري ماذا أفعل.. إنها تستحق رجــلاً أفضل مني.. أنا أعمل كثيراً.. أفكر في العمل كثيراً.. ..

قاطعته.. وقد التقت عيناهما من جديد: إنها محظوظة جداً

ظهر عليه الإرتباك ولم يتكلم

أما هي فتشعر بنفس الانجذاب الغريب له.. لماذا لم تقابله منذ سنتين؟.. بل منذ ست سنوات.. لماذا أبى القدر أن يعطيها رجلاً مثل علاء؟

زوجها.. جامد.. مادي.. رجل أعمال.. أناني.. لا تراه ولا تحبه!

خرجت في ألم ويأس.. لماذا؟ ليتها لم تقابل علاء.. لا تريد أن تحبه.. لا لن تحبه.. يجب ألا تحبه.. لو أحبته ستصبح خائنة.. هي ليست خائنة

لقد عادت إلى مصر.. إلى الإسكندرية لتمارس الطب في بلدها.. ليس من أجل المال.. فعندها الكثير.. فقط من أجل ممارسة الطب.

أمسكت بقلمها.. ماذا ستفعل؟ ستطلب نقلها.. فالحظ كالعادة ليس معها.. لم يعطها رجلاً مثل علاء.. ستطلب نقلها إلى أي مكان لا ترى فيه علاء.. لن تستطيع أن ترى علاء أكثر من هذا.. لن تستطيع.

لم تكن تعرف أنها قادرة على تلك المشاعر.. هذه الراحة التي تشــعر بها وهو معها.. هذا الهدوء

فقط تريد أن تبقى معه..

لن تفعل!

أمسكت بالقلم من جديد.. ولم تستطع أن تكتب شيئاً.

***

علاء عبد الله.. يحبه الكثير ويكرهه الكثير.. خاصة أساتذة كلية الطب.. هذا الشاب العائد من بريطانيا.. يظن نفسه يعرف كل شيء.. لا يحب الوساطة ولا الإطراء على رؤسائه.. ولا يحب الكسل.. يعمل بجد.. يعمل بجد إلى حد مخيف

الكثير يكره علاء..

ولماذا عاد علاء من بريطانيا؟ كان عليه أن يعود.. فقد افتقد الروائح المختلفة..

افتقد رائحة تقلية القلقاس الذي تصنعه أمه.. وكانت تصنعه منذ سنين.. كان يعود من المدرسة ويشم رائحة التقلية، الثوم، الكسبرة الخضراء والسلق.. لم تترك أنفه ...

وماذا افتقد أيضاً؟

رائحة البحر.

رائحة الملح الطازج الممتزجة بذرات الرمال الدافئة كانت تعطيه الإحساس بالأمان والحياة.

في بريطانيا.. كان يعمل ويدرس وينتظر يوما يعود فيه ويعيش في انتظار أن يستنشق رائحة البحر.

وعندما عاد.

وجد للبحر روائح مختلفة.. وجد أن رائحة الملح التي لم تترك أنفه طوال ست سنوات في بريطانيا.. أحياناً تمتزج بروائح كريهة.. أو مختلفة كل الاختلاف

عاد.. وعندما عاد.. كان يود أولاً أن يذهب إلى البحر يستنشق رائحته فوجد مزيجاً من الروائح التي تتغير كل يوم.

حتى قبل أن يرحل إلى بريطانيا كان يشعر بنفسه مختلفاً.. هل تأقلم؟

دوى سؤال چيهان في أذنه.

ربما لا..

من أصدقائه؟

لم يعد عنده الكثير.. عندما عاد من بريطانيا وهو في بداية الثلاثينات كان معظم أصدقائه قد تزوجوا وتغيروا.

عادل صديقه أصبح لا يتكلم سوى عن اللحم الذي يشتريه من دمنهور. اللحم من دمنهور أرخص من اللحم في الإسكندرية وأطعم. يتكلم لساعات عن كيفية طبخ زوجته للحم وكيف يحب اللحم غارقاً في السمن البلدي. عادل يتكلم دائماً عن عمه الضابط الكبير في البوليس وكيف يساعده في إجراءات التراخيص والمخالفات. عادل مهووس بعمه الضابط.. يعيش من أجل عمه الضابط ويده السحرية التي تحول المصاعب إلى أعمال سهلة وممتعة. لو مات عمه الضابط غداً.. فربما يموت عادل أيضاً أو ينتحر من بدري! كيف يعيش دون ضابط كبير؟ للأسف لا يوجد ضابط كبير في عائلة علاء!

صديقه الآخر مدحت.. زميل الطفولة في الإبراهيمية أصبح طبيباً مثله.. يعمل معه في نفس العيادة التي أستأجراها معاً في محطة الرمل.. ولا يعرفه.. لم يعد يعرفه.. يقضي ساعات يتحدث مع صديقته الجديدة في التليفون وكأنه طفل اشترى قلعة جديدة ويستمتع بها.. بالطبع مدحت متزوج ويعول! وهذا ما يجعله يشعر بكل تلك الإثارة والسعادة وهو يتحدث مع صديقته كل يوم..

أحياناً ينظر له علاء لساعات وهو يتحدث في رقة لصديقته.. ويتذكر أيام الطفولة عندما كان مدحت يدق على أبواب الجيران ويجري مسرعاً قبل أن يمسكوا به.. يختلس اللحظات مع صديقته ولا يريد سوى اللحظات.

كان يتمنى علاء أن يصرخ في وجهه: فوق يا حمار! لو عرفت زوجتك!

ولكن زوجته لن تعرف. الكثير من الزوجات لا يعرفن ولو شككن لا يتأكدن. وعلاء لا يتدخل فيما لا يعنيه. تعلم هذا في بريطانيا.

هل تأقلم؟

في الغالب يمشي إلى عمله كل يوم بينما زملاؤه يستعملون السيارة لأقصر المسافات. وعندما يسألهم عن السبب يكون الرد لأن الجو حار جداً أو بارد جداً. أما هو فبعد أن تعرف على المناخ في بريطانيا أصبح مناخ الإسكندرية بالنسبة له كمناخ الجنة وخاصة في الشتاء. يعشق السير على شاطئ البحر في الشتاء.

لم يعد عنده أصدقاء..

هل تأقلم؟

عندما يعود إلى بيته كل يوم ويمسك البواب بحقيبته قائلاً: حمد الله على السلامة يا دكتور.

يمسك هو الحقيبة من البواب قائلاً: أنا سأحملها يا عوض.

– لماذا يا دكتور.. أمال أنا شغلتي إيه

– لا أعرف.. ولا أدري لماذا تحمل أنت الحقيبة لو كنت أنا قادراً على حملها

– لأنك دكتور يا بيه

منطق البواب غريب ولا يستطيع فهمه.. ولا يستطيع فهم جارتهم أيضاً .. تصرخ في البواب كل يوم: يا عوض.. حخرب بيتك يا عوض.. وبيت

أمك.. أنت عارف البيه جوزي بيشتغل إيه؟ تعالى يا عوض.. لما أنـــدهك تيجي يا عوض.. تيجي على طول.. إنجي عايزة شيكولاتة وأيس كريم من البقال بسرعة..

تنهد علاء.. يكره جارته كما لا يكره شيئاً قط.. يكره صوتها العـــالي، لسانها البذيء وعجرفتها. حمدا لله أن زوجته مختلفة عن جارته...

يكره غرور الغني.. وغرور المتعلم.. يكره سحق الفقير والمســكين.. يكره استغلال البشر لبعضهم البعض.

يكره الظلم.

هل تأقلم؟ ما أجمل چيهان.. چيهان مختلفة.. چيهان تحمل كل ما هـــو جميل في بريطانيا.

***

أخذت رانيا تقرأ وتقرأ.. ستقرأ وستصبح مثقفة.. سيحبها.. أســبوع.. بعد أسبوع سيحبها

نظرت لنفسها في المرآة.. يجب أن تغير الكثير من ملامح وجههـــا.. وخاصة سمرة وجهها.. وقوامها.. وشعرها...و...

وضع يده على كتفها وقال في حنان: أنا آسف يا رانيـــا.. آســف يـــا حبيبتي.. تصوري وصل بهم الإهمال إلى أن يتركوا مريضاً بالكبد الوبائي يأكل كرشة وكوارع في المستشفى! كان سيموت.. شيء فظيع.. لـــم يعـــد هناك ضمير.. لا يوجد ضمير.. المشكلة الضمير

قالت في حماس وهي تنظر له: ليس كل الأطباء مثلك!

ماذا تقول الآن؟ فلتفكر قبل أن تتكلم.. فلتفكر...

لا لن تتصرف ببلاهة كما فعلت من قبل...

أبداً لم تشعر يوماً بالسكينة.. لا.. دائماً تفكر في كل كلمة وكل خطوة تخطوها.. ماذا ترتدي.. كيف تبدو.. ماذا تقول؟

خمس سنوات وهي تحاول.. بدأت تيأس!

إبتسم وقال: رانيا ماذا بك؟ هل تفكرين في شيء؟

الإطراء.. نعم الإطراء.. والدتها تقول أن الرجال تحب الإطراء

- علاء حبيبي.. إنك أذكى وأجمل طبيب في العالم

إبتسم

هل يسخر منها؟ إنه يسخر منها.. تعرف أنه يسخر منها

لا لن تتشاجر معه.. لا أحد يتشاجر مع علاء

ربما لا يسخر منها

أكملت: لقد زرت أمي اليوم إنها تبعث لك بالتحية ورشا ستعود من السعودية بعد يومين. زوجها بخيل بخيل إلى درجة كبيرة.. شتّان بينك وبينه

إبتسم من جديد

لماذا لا ينطق؟ هل هو سعيد بالإطراء أم لا؟

قالت مسرعة: كان هناك بركان اليوم هل تعرف؟

نظر لها في دهشة من جديد.

فأكملت والكلمات تتلعثم في حلقها: في اليابان.. أظن في اليابان كان هناك بركان.. ماذا تعرف عن البراكين؟ لقد قرأت عنهم.. يمكن للبركان أن يبقى خامداً آلاف السنين وعندما ينفجر...

نظر لها ثم قال مازحاً: هل هذا تهديد؟

قالت في ارتباك: لا.. بالطبع لا.. لم أقصد.. أشعر بالإرهاق وسامحني إذا كنت قد تكلمت كثيراً اليوم.. أنت لا تحب الزوجة الثرثارة أليس كذلك؟.. علاء ماذا تحب؟ قل لي ماذا تحب؟

همس في رقة وهو يمسك يدها: أحبك أنت.

كاذب!

يكذب من جديد.

عيبه الوحيد أنه كاذب!

تعرف أنه لا يحبها.. لماذا يكذب اذن؟

ولكن الكلمة أذابتها.. وكأنها دخلت الجنة قبل أن تموت.. بل ماتت وعاشت من جديد...

قالت في يأس: شكراً.

إبتسم من جديد: لماذا تشكرينني؟

- لأنك تحبني؟

- ماذا؟ كيف لا أحبك.. أنا أحبك كما أنت لا أريدك أن تتغيري.. فقط ابقي هكذا.. ألم أقل لك من قبل؟ لو لم أتزوجك كنت سأكون لا شيء.. لو لم تساعديني.. تسهري معي.. تشجعيني.. لم أكن لأنهي الدكتوراه بهذه السرعة.

امتنان إذن!

زوجها لا يشعر سوى بالإمتنان!

أبدا لم يتشاجر معها يوماً.

طوال خمس سنوات لم يتشاجر معها يوماً.

ولكن.. عندما نام ليلته.. واستيقظ في منتصف الليل وأغمض عينيه والأسى يملأ قلبه كانت تعرف .. كانت تعرف جيداً أن زوجها يتوق

لأخرى.. يحب أخرى.. وكانت تدعو الله في صمت.. تطلب الكثير.. غداً تود أن تستيقظ لتجد زوجها قد نسي چيهان وأيضاً وقع في حبها.

فلينس چيهان إذن أو يزني معها!

لا تحب هذا الأسى في عينيه.. تكره هذا الأسى.

يعذبها هذا الأسى كما لم يعذبها شيئاً من قبل

***

إحتضنت رانيا أختها في شوق.. لم ترها منذ عام.. تحركت عائشة أم رانيا في كل اتجاه.. وكأن عودة ابنتها أفقدتها الشعور بالإتجاهات.. هذه عادة عائشة عندما تفرح تفقد الإحساس بالإتجاهات.. تفقد السيطرة على كل شيء.

كانت عائشة ترتدي حجابها الأسود وعباءة باهتة واسعة.. ملامحها حادة بعض الشيء.. تشبه رانيا إلى حد كبير بوجهها الأسمر وعينيها الواسعتين وشفتيها الرفيعتين..

رشا كانت مختلفة.. رشا دائماً متألقة.. رشا بيضاء كأبيها...

قالت رشا لأختها: رانيا كم افتقدتك.. ولكني جئت لأبقى.. فَلْيَلّم شوقي المال وحده.. الحياة.. قصيرة لنضيعها في الإدخار.. هو يدخر وأنا أعيش.. رجل ممل.. مادي...

لم تقل رانيا شيئاً فليس من عادتها النميمة وشوقي رجل على كل حال.. وبما أنه رجل فيجب أن يحترم...

قالت رشا: كيف حال علاء؟

- مشغول طوال الوقت.. لا أراه.

قالت الأم مسرعة وهي تمسح عرقاً يتصبب من جبهتها.. ثم تضع صينية الشاي على المنضدة: علاء.. وهل يوجد رجل كعلاء!

طأطأت رانيا رأسها.. ماذا تقول؟ نعم لا يوجد رجل كعلاء.. ولكنهـا خائفة فلتبح لأحد بما يقلق منامها.. فلتبح لأختها.. لأمها...

قالت في صوت خجول: ماما.. أنا لست سعيدة!

وكأن القنبلة سقطت فشلت حركة كل الجالسين.. فتحت أختها فمها في ذهول!.. وضعت أمها يدها على حجابها الأسود وكأنها تستوعب المفاجـأة ولم تنطق.

فأكملت رانيا في نفس هدوئها وخجلها: زوجي يحب أخرى.

شهقت رشا في فزع: رانيا هل تمزحين؟ علاء متدين وناجح ..

قاطعتها أمها: هل جننت يا رانيا؟ علاء؟ إنك موهومة فقط.. ثم حتى لو كان يحب أخرى فالغلطة غلطتك أنت! أنظري لنفسك في المرآة.. الرجـل يحب التغيير.. يحب زوجته أن تكون امرأة جديدة كل يوم.. أين الملابـس الجميلة.. أين الإبتسامة على وجهك.. طوال الوقت عليك أن تغيري مـن نفسك وتفعلي ما يريحه.. إبحثي عما يريح زوجك.

قالت في يأس: لا أدري ما يريح زوجي.. سألته وقال إنه سعيد.

قالت أختها في قوة: إذن هو سعيد.. ما كل هذه التهيؤات.. هل حماتك هي السبب؟ هل حماتك تكرهك؟

هزت رأسها بالنفي: لا المشكلة أنه يحب أخرى.

قالت الأم في شيء من العصبية: حتى لو كان هذا حقيقياً فأنت السبب.. لماذا توقف عن حبك أنت؟

قالت في تلقائية: هو لم يحبني أصلاً ليتوقف.

– لا.. لقد جننت يا رانيا.. أنا أمك وأعرفك.. الأولاد وغياب زوجـك المستمر.. تشعرين بالفراغ.. هل تحتاجين إلى العمل؟

فكرت رشا بعض الوقت ثم قالت: هل تظنين أنه سيتزوج من هذه الأخرى؟

قالت مسرعة: لا.

قالت الأم في عصبية: لو.. لو كان هذا حقيقياً.. أتظنين أنهم على علاقة الآن؟

- لا.. لن يكون هناك علاقة بينهما.

قالت الأم وهي تمسك بكوب الشاي في لهجة نهائية: لو لم يكن على علاقة بها.. فهو لا يحبها.. أنها أوهامك!.. اليوم أريدك أن تغيري من مظهرك رشا اشترت لك "كام قميص نوم" من السعودية.. ولا تنسين الإطراء.. والإستماع له.. استمعي له.. وإستمعي له كأنه علاء الدين جاء بالمصباح السحري.. يجب أن يشعر أنك مفتونة به.. وانس كل هذه التهيؤات.

هزت رأسها بالإيجاب.. والدتها كانت دائماً حازمة وقوية.. وهي لم تخالف لها أمراً أبداً.. تتذكر الصفعات القوية وهي صغيرة لو اتسخت ملابسها وهي تلعب.. كانت تخاف أمها لم تزل تحترمها...

وهي في طريقها إلى البيت لاح بذاكرتها ذلك اليوم منذ عشرين سنة.. كانت تمسك بيد أمها في الترام المتجه إلى محطة الرمل.. تركت يدها وتاهت في الزحام.. كانت الأم حينئذ تمسح عرقها.. وتحمل المأكولات وتنفخ في غيظ.. غيظ من كل شيء.. الزحام.. الشمس الحارة.. الفقر..

هذا اليوم.. تاهت لدقائق.. وعندما وجدتها والدتها.. هوت على وجهها بيدها وصاحت: أنا نقصاك يا معتوهة! تحرقي دمي ليه!

ابتسمت لنفسها.. لا لم تغضب من أمها أبداً.. كل هذه الضغوط.. كل هذا التفكير.. أمها تحبها.. جداً.

وصلت بيتها....

سوف تجهز كل شيء لليلة رومانسية اليوم.. نعم.. وستنسى كل شيء عن چيهان

اليوم سيبدأ زوجها قصة حبه.. حبه لها هي رانيا.. اليوم.

وضعت طفليها في حجرتهما.. إرتدت قميص النوم الأحمر الشفاف.. وضعت طلاء الشفاه...والكحل.. والبودرة الفاتحة على وجهها ورقبتها، سوف تبدو أكثر بياضاً اليوم. نظرت لنفسها في المرآة.. لم تزل چيهان أجمل منها.. بكثير..

لن تفكر في چيهان اليوم.

وضعت الطعام على المائدة.. ووضعت يدها على خدها في انتظار زوجها.. عن ماذا تتكلم معه اليوم؟

لا لن تتكلم.. هي لا تعرف شيئاً عن العالم.. هي.. هي ماذا؟ لا لن تتكلم حتى لا تتفوه بالتفاهات.

ستستمع فقط.

سمعت صوت المفتاح .. سيدخل الآن.

بدأت في الدعاء إلى الله كعادتها قبل أن يدخل زوجها.. اليوم يا رب.. فليحبني اليوم.

إبتسم كعادته ثم قال في حنان: أنت جميلة اليوم يا رانيا.

بدأت تعلو دقات قلبها وقالت في ارتباك: جهزت لك العشاء و...

قاطعها وهو يجلس بجانبها ويطبع قبلة على خدها: كنت أفكر فيك اليوم

يا إلهي.. يبدو أن هذا يوم سعدها.

لم تقل شيئاً.

أكمل وهو يضع بعض الخبز في فمه: أشعر بالذنب يا رانيا.. أرجو ألا أكون قد وقفت في طريق مستقبلك.. هل تريدين العمل الآن؟ رامي سيدخل الحضانة في العام القادم وأحمد في الحضانة.. لو أردت أي شيء...

قالت مسرعة: لا لا أريد العمل.

لديها مهمة واحدة.. أن يحبها زوجها.. عليها أن تفكر في مهمتها!

نظر لها في دهشة وقال: لماذا لا تأكلين؟ لماذا لا تأكلين معـــي أبـــداً.. دائماً لا تأكلين معي.. ما المشكلة؟ هل أكلت من قبل؟

قالت مسرعة: لا.. لم آكل من قبل.

فليسامحها الله على هذه الكذبة!

أكملت: لست جوعانة.

والدتها تقول إن عليها ألا تأكل أمام زوجها.. سيظن أنهـــا مفترســـة.. الرجل يحب المرأة الرقيقة التي لا تأكل ولا تذهب إلى دورة المياه!

انتهى من الطعام.. تمدد على الأريكة وقال: رانيا.. أنا قلق على محمد أخي من زوجته هذه..

– لماذا؟

– تطلب الكثير.. تريد هدية ذهباً في كل مناسبة.. لا بأس ولكن محمد محاسب في شركة لا يتقاضى راتباً كبيراً.. يعمل كثيراً.. أخشـــى علـــى صحته.. اليوم رأيته.. بدا شاحباً ويعاني من ألم في صدره.

قالت مسرعة: نعم.. أنا لا أحب زوجته هذه.. طماعة.

ابتسم في رقة: تظنين كل النساء مثلك؟.. أنت ملاك!

إنتهى الكلام بينهما.. دائماً يشعر أن حواراتهما مبتـــورة.. لا يـــدري لماذا.. كانت تشعر بنفس الشيء.

بعد دقائق دخلا حجرتهما.. فأطفأت النور في ارتباك كما تفعل دائماً قبل أن تمارس الحب مع زوجها.

- لماذا تطفئين النور يا رانيا؟ لماذا دائماً تطفئين النور؟

بلعت ريقها في خجل: لأن.. تعرف.. بعد أن تنجب المرأة طفلين.. تفقد قوامها الممشوق و.. لا تبدو بنفس.. بنفس الجاذبية... و

صمتت.. لا تدري ماذا تقول.. ولم ينطق هو.

***

ضمها إلى صدره وهو ممدد على السرير وقبّل شعرها في احترام ورقّة.

ماذا تقول؟ عضت على شفتيها.. بالطبع هي غبية.. لماذا لا تتعلم كيف تسعد زوجها؟ عليها أن تطلب منه العفو.. فهو يعطيها كل السعادة وهي لا تعطيه شيئاً.

همس: رانيا.. ماذا بك؟

أحاطت صدره بذراعها وقالت في مرارة: أنا أحبك يا علاء.. لا تتركني أبداً.. أبداً.

إبتسم في دهشة وقال: كيف أتركك؟ ما هذا الهراء؟

ومن هي رانيا؟

فتاة من عائلة متوسطة تسكن في شقة قديمة في سيدي جابر.. هادئة وخجولة.. والدها رجل محافظ.. الشارع كله يعرف عنه الالتزام ما أن تقاعد حتى قرر أن يقضي معظم وقته في العبادة.. والدتها.. أم عظيمة .. لم تعمل أبداً.

وهي.. كانت تحلم ككل البنات.. منذ السادسة عشرة وهي تحلم برجل يحبها يضمها يحتويها.. ولا تريد شيئاً آخر..

لن تنكر.. علاء لم يكن الحب الأول في حياتها.

في السادسة عشرة .. وكعادة الكثير.. كانت تحب محمود إبن خالهــا.. شاب.. بماذا تصفه؟ مليء بالحياة.. صوته عالٍ.. ضحكاته عالية.. صريح وأمين!

شاب مختلف عن زوجها.. لا يملك قوة زوجها ولا كرامــة وشــموخ زوجها.. ولا سحر زوجها.. ولا نجاح زوجها!

محمود..

كانت تحبه في صمت.. فهي أبداً لم تأخذ خطوة المبادرة!

ثم ماذا؟

ست سنوات وهي تحبه في صمت.. حتى سافر إلى بريطانيــا ليشــق طريقه.

حزنت.. نعم حزنت وكعادتها دعت الله.. ثم عوضها الله برجل تتمنــاه كل بنات الإسكندرية.

رجل عرفت معه معنى الحب الحقيقي...

كم هي طماعة!

ها هي تطلب المزيد من الله...

تطلب المزيد.. فقط فليحبها.

دعت من جديد: يا رب.. لا أريد مالاً.. لا أريد سيارة.. لا أريد شــيئاً فقط اجعله يحبني.

ولكن والدتها دائماً تقول أن علاقة الرجل بالمرأة مجهود متواصل.. بل المرأة يجب أن تجتهد طوال حياتها لتحافظ على زوجها.. وهي؟

تخاف على زوجها.

- يا رب اجعله يحبني وينسى چيهان.. أريده أن يحبني.. أتمنى أن يحبني..

***

قال علاء في قوة للطبيب المخضرم: هذا الطفل لن يذهب إلى بيته!

نظرت له أم الطفل في رجاء وهي ترتدي حجابها الأسود وعباءتها البترولي والشبشب القديم.. والطفل يحوم حول بهو المستشفى في خطوات بطيئة.

قالت في رجاء: دكتور علاء.. دكتور عبد الكريم يقول إن صحة ابني زي الفل شوية برد بس!

قال في نفس القوة: أتريدين أن تفقدي ابنك؟ أظن أنه مصاب بالتيفود.

صرخت السيدة ثم صاحت: ابني...ابني راح!

لم يأبه علاء بصرخاتها.. وكأنه لا يسمعها ولا عبد الكريم...

قال عبد الكريم في لهجة حادة: دكتور علاء.. أنا رئيسك هنا.. وأنا أقول أن هذا الطفل يعاني من بعض الحمى ونزلة شعبية فقط وأنا...

قاطعه علاء: سوف يبقى.

- قلت أنا من أحدد.

- سوف يبقى.

نظر له الطبيب المخضرم في شيء من الازدراء.. شيء من الكره ثم قال: أريدك في مكتبي.

ثم تركه وصرخ في إحدى الممرضات: إذهبي إلى عملك..

أمسك علاء بالطفل.. وأدخله إلى حجرة وقال لأمه في قوة: تريديه أن يعيش؟

صاحت في ترج: أدفع عمري ويعيش!

- لا يتحرك من هنا إلا بأمري.

سار في هدوء إلى حجرة عبد الكريم.

ما إن دخل حتى قال عبد الكريم في لهجة حادة: كيف تكسر كلمتي أمام كل الممرضات والأطباء؟

- الموضوع ليس موضوع كلمة يا دكتور..الموضوع هو موضوع طفل سيموت إذا لم يعالج.

- أنا من أحدد هذا.. أنا هنا رئيسك وعليك أن تحترمني وتحترم رأيي!

قال علاء في هدوء: دكتور عبد الكريم أنت رئيسي وأستاذي ولكن لو رأيت أن رأيك يتعارض مع مصلحة إنسان لن أحترمه.

- علاء أنا أستاذك تذكر هذا!

- بالطبع أستاذي ولا ترضى لمريض أن يموت لمجرد أن هناك تعارضاً في أفكارنا.

- أنا من أحدد إذا كان سيموت أم لا.

- أظن أن هذا بيد الله وعلينا أن نفعل كل ما في وسعنا.

- المشكلة ليست مشكلة مريض.. لا أحب طريقتك في معاملتي.. تظن أنك ستأتي هنا وتغير كل شيء لأنك تعلمت بالخارج.. تظن أنك تعرف كل شيء.. إننا كلنا جهلاء!

– لا أظن هذا.. لقد تعلمت على أيدي الأساتذة هنا.. وكما قلت أعتقد أنك تأخذ الموضوع بشكل شخصي هو موضوع طفل مريض وأنا أعتقد أنه مصاب بالتيفود.

– لا تتحداني يا علاء!

– أهذا تهديد يا دكتور عبد الكريم؟

– يمكنك أن تعتبره تهديداً أوامراً.. أيهما تفضل؟

– لا أحب التهديد ولا أخشى شيئاً لأني لا أفعل شيئاً مخالفاً.. ولا أظنني هنا لأتلقى الأوامر من أحد.. عن إذنك يا دكتور.

ذهب إلى حجرته في خطى ثابتة.. عندما دخل نظرت له چيهان في اعجاب ثم قالت: أخاف عليك يا علاء.. عبد الكريم رجل.. بماذا أصفه؟ فظيع!

– لا تخافي يا چيهان.. لقد اعتدت هذا.. عليك أن تضعي قدمك على الأرض كما يقول الإنجليز.. لو شعروا بقوتك سيخافوك!

حملقت فيه لثوان ودقات قلبها تعلو ثم جلست قائلة في حماس: هل أكلت شيئاً؟

قال وهو يبتسم: لا.

– يوجد مطعم صغير "فول وفلافل" يبدو مقززاً ولكني أود أن أجربه.. هل تأتي معي؟ إنه أمام المستشفى ليس لدي الشجاعة على أن أجربه وحدي!

قال في تلقائية: بالطبع.

أمسكت بسندوتش الفول في لهفة وكأنه هو علاء...

كانت سعيدة.. لم تكن بهذه السعادة من قبل أبداً.. سعيدة وتشعر براحة غريبة.

وهو؟ بماذا يشعر؟

نعم.. يحبها.

ويكره نفسه لأنه يحبها.. يشتاق لها...يتمناها.

هذه خطيئة.. يعرف ولا يستطيع التحكم في مشاعره!

ليته يستطيع...كثيراً ما دعا الله في صلاته أن يغفر له تلك المشاعر التي يشعر بها تجاه چيهان.

- يا رب أنت تعرف قلبي ليس بيدي بل بيدك أنت.. اجعلني أنساها.. أريد أن أنساها

لا.. لم يحب سواها.. ولم يكن يوماً يظن نفسه قادراً على تلك المشاعر!

كان رجلاً عاقلاً.. بل طفلاً عاقلاً.. أمل والديه ...عاشا من أجله ومن أجل أخيه...

هو العاقل.

سافر وعاد وفكر في الزواج.. بعقله.. تمنى زوجة مثالية ووجدها.. لماذا الآن؟ لماذا بعد أن تعدى منتصف الثلاثينات يقابل چيهان؟

يشعر بالذنب.. عليه ألا يحبها.

لا.. لا يمكن أن يتوق لأخرى.. هذه خطيئة.

هو أخطأ إذن! سيطلب المغفرة والله غفور رحيم وهو متدين والله معه!

•••

هناك شيء واحد تكرهه رانيا.. أن ينظر أحد إلى أكلها قبل أن يأكله زوجها.. "الأكل المنظور" لا يؤكل!

وهي تكره الطبخ.. تعلمته من أجله هو.. لا لن يكون عندها خادمة! الخادمة سترى الطعام قبل أن يراه زوجها.. الطعام كالفتاة البكر.. يفقد عذريته .. ولو فقدها يفقد نضارته.. يصبح لا شيء!

قالت لأختها في حماس: علميني كيف أسعد زوجي؟ ماذا أفعل.. رشا أنت محنكة.. كنت مخطوبة مرتين وتعرفين كيف تتعاملين مع الرجال

قالت رشا في دهشة: يا رانيا.. اعقلي.. لماذا يعيش زوجك معك لو لم يكن يحبك؟ لا يوجد رجل يعيش مع امرأة وهو يحب أخرى.. الرجل بطبعه أناني يا رانيا.. ولا يأبه بأطفال.. من يكره زوجته يكره أبناءه!

لم تطمئنها كلمات أختها.. قالت من جديد: إنه يحب أكلي.. ولكن هذا لا يكفي.. و.. رشا.. عن ماذا أتكلم معه؟

قالت أختها في لامبالاة: عن أي شيء.. فقط غيري هذه النظرة التي في عينيك.. وكأنك سمعت خبر موت زوجك.. إضحكي.. الرجل يحب المرأة الضحوكة.

حسنا.. من اليوم سوف تضحك وتضحك!

ما إن دخل زوجها من الباب حتى ابتسمت في وجهه.. كان يبدو مهموماً.. لم تأبه بذلك.. ابتسمت من جديد: علاء حبيبي.. أنا سعيدة جداً.. اليوم أنا سعيدة جداً.

جلس.. بدا متجهماً.. لم تلاحظ.. كانت تركز على دورها الجديد "الزوجة الضحوكة".

- هل أقص عليك نكتة جديدة؟

قال في حزن: لا يا رانيا

لم تلاحظ حزنه.. ولم تهتم.. أمامها هدف.. ضحكت من جديد وقالت: هل أجهز لك الغذاء؟

- لا يا رانيا.. لماذا تضحكين؟ لا يوجد شئ مضحك.. هناك مصيبة يا رانيا.. مصيبة!

بلعت ريقها في ارتباك.. يا لحماقتها! همست في صوت لا يكاد يسمع: ماذا جرى يا علاء؟

- محمد.. عنده أربعة صمامات في القلب في حاجة إلى تغيير.. أخي مريض يا رانيا.. يحتاج الكثير من المال.. ولا أدري ماذا أفعل.. والدتي منهارة..

قالت مسرعة: يا إلهي.. متى عرفت هذا..

- اليوم.. كنت أشك في ذلك منذ زمن.. محمد سيحتاج عملية.. من الأفضل أن يذهب إلى بريطانيا.. سأنظم له كل شيء.. علي أن أذهب معه.. ولكن المال.. من أين..

ما هذا؟ ماذا يقول زوجها؟

قالت في ارتباك: المال الذي نضعه جانباً لنشتري فيللا في الساحل الشمالي.

- نعم فكرت فيه.. علينا أن نستعمله.. ولكنه لا يكفي.. ثلاثون ألف جنيه لا تكفي.. عليَّ أن أبيع سيارتي.

قالت مسرعة: وسيارتي إن أردت.

نظر لها لثوان.. كم يحترم هذه المرأة.. وكم هو معجب بأصالة هذه المرأة!

قال في إعجاب: شكراً يا رانيا.. لا سيارتك لا.. نحتاج سيارة واحدة.. سيارة واحدة تكفي.. وزوجته لا تريد أن تبيع أي شيء من ذهبها الذي

اشتراه هو لها.. تحتفظ به للزمن.. وإذا مات زوجها ماذا سيعطيها الزمن؟ المرأة التي لا تقف مع زوجها في محنته لا تستحق أن تعيش معه.

قالت مؤكدة: بالطبع.. ألم أقل لك من قبل؟ أنا أكره هذه السيدة!

- نظرتك دائماً في محلها يا رانيا.. دائماً

- نعم للأسف دائماً.

•••

قبل أن يرحل مع أخيه إلى بريطانيا كان عليه أن يزور البحر. كان الليل قد حل.. ولم يكن يسمع سوى صوت كلاكسات السيارات وصوت العجلات السريعة على طريق البحر السريع. كان عليه أن يزور منطقة السلسلة. توقف أمام البحر.. وتنفس نفساً طويلاً. رائحة البحر اليوم رائحة الملح الطازج وأعشاب البحر.. الأمواج عالية وعنيفة. وها هو.. تمثال صباه.. يقف شامخاً تمثال الأسطورة الإغريقية القديمة للفتاة اليونانية أوروبا وفوقها الإله الإغريقي زيوس على هيئة ثور يهم بإغوائها. كانت تتصبب أنوثة وحياة، جسدها قوي وعضلاتها عريضة وفخذاها ممتلئان صلبان ويبدو وكأنهما على وشك العودة إلى الحياة. أما الثور فوقها بقرونه المدببة فيتحول نصفه الأسفل إلى موجة تغطيها وتغمرها إلى الأبد. لم يكن علاء يعرف ما إذا كانت أوروبا تدفع بالثور بعيداً أم تضمه إليها إلى الأبد. ولكن أوروبا رحلت مع زيوس وكانت له ومنه للأبد. أخذها معه إلى أعماق البحار.

عريس وعروسة يأتيان بسيارة زرقاء مزينة بكل أنواع الزهور والشرائط البيضاء. السيارة تتوقف وتخرج منها العروس بفستانها الأبيض الكبير. تبدو سعيدة ومتعبة وحيرانة. والعريس يخرج وراءها. نحيف يرتدي بدلة زرقاء. يقفان معاً تحت التمثال وكأنهما مستسلمان لقدرهما.

المصور يلتقط صورة للعروسين وتبدأ والدة العروس بفستانها الأسود اللامع في أن تزغرد.

إبتسم علاء لنفسه.

يعرف جيداً أن معظم أهل الإسكندرية ربما لا يعرفون ما معنى هذا التمثال ومع ذلك فكلهم يحترمونه ولسبب ما يأتي العرائس والعرسان هنا من أجل صورة الزفاف وكأن قصة غواية أوروبا على يد زيوس في قلب كل أهل الإسكندرية منذ القدم.. ولسنوات كان يأتي هنا يحدق في السيدة وفوقها الثور وهو لا يعرف ما معنى هذا التمثال ولكن وجود التمثال كان يشعره بالأمان والسكينة. وطالما التمثال هنا أمام البحر فهو سعيد.

تحت التمثال كان يقف كل أنواع الباعة.

بائع الفشار بعربته الصغيرة، بائع عصير العرقسوس، بائع الذرة المشوي وبائع المحمصات.

كلهم يقفون تحت التمثال، كلهم باختلافهم وتناقضهم.

وكأن رائحة البحر تعكس الروائح المختلفة لتلك المدينة وكان التناقض بين أوروبا وبائع عصير العرقسوس واضحاً.. واضحاً جداً لعلاء.

ولكنه لم يكن واضحاً لأحد سوى علاء.

كان واضحاً له لأنه كان قادراً على الوقوف خارج الأحداث ومراقبة كل شيء. لم يكن أبداً بطلاً في رواية اسكندرانية كان دائماً المتفرج.

غداً سيرحل إلى بريطانيا من أجل عملية أخيه.. مرة أخرى سيذهب إلى بريطانيا بعد ست سنوات في مصر.

***

الفصل الثاني

عليه أن يفكر في مستقبل ولديه.. ماذا يملك الآن؟ لا شيء سوى شقته وسيارة زوجته وخمسة آلاف جنيه في البنك.. وماذا كان بيده أن يفعل؟ يترك أخاه يموت؟

سوف يعوضه الله.. سوف يعوضه.

أمسك بيد أخيه.. يكره نظرة اليأس في عيني أخيه.. يكره نظرة اليأس في عيون كل من حوله.

وچيهان.. چيهان ترى نفس اليأس في عيون من حولها.. قالت له يوماً: إني لا أرى سوى آلام حولي.

أجاب: لا.. هناك الكثير من السعادة أيضاً.. في مصر، هناك شعرة تفصل بين الألم والنشوة.. أحياناً يختلط الأمر على المصريين.. ولا يدرون أين الألم وأين النشوة.

نظرة الانكسار في عيني أخيه تخيفه.. تُخرج شفقته وخوفه.

- محمد.. لا تهتم بشيء ستصبح على ما يرام.

- لا أدري ماذا أقول يا علاء.

- لا تقل شيئاً.. إنك أخي.. كنت ستفعل نفس الشيء.

ضغط أخوه على يده وكأنه يستمد منها القوة...

القلق يطرق على قلب علاء بمطرقة قاسية..

يخاف على أخيه.. يخاف كما لم يخف من قبل!

أغمض عينيه وهو يدعو الله.. سيصبح بخير.. سيخرج من غرفة العمليات بعد دقائق وسيكون بخير..

أمسك بكوب القهوة الكرتون بين يديه.. يعرف رائحته جيداً.. رائحة القهوة من كوب كرتون.. رائحة بريطانيا التي يعرفها ويشتاق لها أحياناً...

رائحة المطهر الإنجليزي التي تملأ المستشفى.. لم ينسها...

سمع صوتاً يعرفه جيداً.. لا.. هل يحلم؟ أهذا صوت چيهان؟

لقد مر حوالي شهر منذ تغدى معها في المطعم المتواضع.. لم يرها كثيراً.. كانت مشغولة.. مشاكل.. أشياء من هذا القبيل.. وهو أيضاً كان مشغولاً بأخيه وترتيبات السفر.

همست في صوتها الرقيق: علاء.. كيف حالك؟

نظر لها في ذهول.

قالت في شيء من الارتباك: لقد.. لقد كنت في بريطانيا وقررت أن أزور أخاك.. علاء، لا تقلق عليه سيكون بخير ..

إبتسم لها.. نعم تمنى أن يراها.. لا لم يتمن أن يراها.. تمنى أن يرى أحمد ورامي ورانيا.. لقد سافر من يومين فقط وها هو يفتقدهم...

لا.. لا يحب كل هذا الهراء.. كل هذه الأشياء من حوله! يكره الصراعات ويحتقر الخيانة...

وبدأ يكره قلبه أيضاً ...

هل وضعت يدها على يده.. هل فعلت؟

همست في حب: سيكون بخير يا علاء...لا تقلق.

أين سيطرته على نفسه؟

ابتسم في هدوء وقال في ثقة: نعم أعرف.. كيف حال زوجك يا چيهان؟

كان عليه أن يُذَكِّر نفسه.

أظَهَر الألم على وجهها أم تخيله؟

انتزعت يدها من على يده وقالت في مرارة: لقد انفصلنا يا علاء!

هل هذا حلم؟ هل كان يحلم؟

چيهان هُنا.. وزوجها طلّقها...

في لندن.. هنا معه؟.. تضع يدها على يده!

وهل يوجد غواية أكثر من هذا؟

لا.. قلبه لن يفعل هذا به! هو الزوج المثالي القوي!

قال وهو يحاول السيطرة على مشاعره: أنا آسف يا چيهان.. هل يمكنني المساعدة؟ هل تحتاجين شيئاً؟ ..

قامت وقالت في هدوء: أخوك سيكون بخير.. ولا تقلق عليّ.. سأعود إلى مصر بعد غد.. لقد جئت من أجل.. من أجل أن أنسى موضوع زوجي.. هل يمكنني أن أراك غداً؟

قال مسرعاً: لا أظن ذلك.. فأخي...

لم يكمل.. قامت في هدوء وتركت المستشفى.

***

أخوه بخير.. تنفس في ارتياح.. سار إلى الفندق في شوارع لندن التي يعرفها جيداً.. يريد أن يستمتع بكل هذه الأماكن التي يحبها وهذه الروائح قبل العودة إلى زوجته وأولاده.

رائحة الفحم المحترق لم تزل تسيطر على الشوارع وكأنه في القرن التاسع عشر.. اختلست عيناه نظرات داخل البيوت الإنجليزية..

النار تحترق.. رجل وامرأة في الثمانينات يجلسان بجانب المدفأة يشـــاهدان التليفزيون.. بيتهما أحمر من الداخل ومن الخارج.. يبدو عليهما الانســـجام والحب.. إبتسم في شيء من الأسى.

إستمر في السير.. تغيرت الرائحة.. رائحة الزيت المغلي الآتيـــة مـــن محل السمك المقلي تسيطر على كل شيء الآن...

ثم دخل محلاً صغيراً يبيع السندوتشات.. تسيطر عليه رائحـــة الزبـــدة القديمة...

ثم سار في الصقيع.. سار وسار.. جرى.. يشعر بماذا؟

بالاشتياق.. لبريطانيا ولچيهان.. لو أغمض عينيه وفتحها فوجد نفسه قد عاد به العمر ست سنوات.. هنا.. وقابلها هنا.. وأحبها هنا.. نظـــر إلـــى الحمامة الصغيرة التي تقف وحيدة وسط الشارع الكبيـــر وكأنهـــا ضـــلت الطريق.. تعاطف مع الحمامة.. لماذا تقف هكذا في الصقيع؟

سار من جديد.. حاول أن يمسك بها.. فطارت خائفة. بيت آخر أحمـــر من الخارج.. سماوي من الداخل.. رجل سمين أشقر يجلس على مقعد أمام زوجته.. شعرها رمادي.. وجهها أبيض.. وطفـــلان يـــأكلان العشـــاء.. رائحة البطاطس المشوية تسيطر على الشارع...

هذا ما يحبه في بريطانيا.. الروائح واضحة.. دائماً واضحة...

لا يوجد مزيج غريب من الروائح كما يوجد في مصر.

في إنجلترا المشاعر واضحة. لقد رأى كثير من الحزن في بريطانيـــا أيضاً ولكن حزن بريطانيا ليس بسبب الفقر.. الحزن هنا يأتي من الداخل.. حزن جاد ومزمن.. لقد رأى الوحدة واليأس فـــي عيـــون زملائـــه فـــي بريطانيا.. رأى زميلة له تنهار في صمت وكبرياء.. إنهمرت الدموع مـــن عينيها وهي في المستشفى.. كانت طبيبة بريطانية مخضرمة.. حاول كـــل

الحاضرين تجاهلها وكأنهم لا يرون الدموع في عينيها.. تجاهلوها وحاولوا الاستمرار في عملهم في ميكانيكية.. وكأنهم يخشون أن يسألوا عن سبب حزنها حتى لا تفجر حزنهم هم أيضاً.. لا أحد يتدخل في حياة الآخر دون إذن.. هناك احترام للخصوصية...

أما في المستشفى في مصر...

إذا بكت احدى الطبيبات يبدأ كل زملائها التجمع حولها والإلحاح عليها...

– مالِك.. بس متزعليش نفسك.. مفيش حاجة تستاهل زعلك.. راجل.. السبب راجل.. سبب المصايب كلها.. الله يقطع الرجالة وسنينهم.. حد عيّان عندك يا بنتي.. عايزة حاجة..

أخذ نفساً طويلاً.. رائحة أوراق الشتاء الذابلة هي رائحة قلبه الآن.

آه.. لماذا كل هذا الاشتياق لچيهان؟

وما هوالحب؟ وهل مشاعره ناحية رانيا ليست حباً؟

لا.. ليست حباً ولم تكن حباً أبداً.

أليس الحب هوالاحترام والتقدير؟

لا.. الحب هو الاشتياق.

الحب هو الرجفة التي يرتجفها قلبه كلما رآها...

فتح باب حجرته في الفندق الصغير.. دخل.. نام على سريره بملابسه...

فليطمئن على أولاده قبل أن ينام.. طلب الرقم.. سمع صوت زوجته الحنون وصوت ولديه...أغمض عينيه والاشتياق يطغي على قلبه.. لم يعد يريد أن يسأل عن مصدر الاشتياق أو لمن هذا الاشتياق.

مشاعره ممزوجة بمرارة غريبة.. هذا القدر الأحمق الذي جعله يقابل جيهان الآن! لماذا؟

إختلطت الأمور عليه.. نساء تقتلك... ونساء تُحييك!

زوجة أخيه كانت على وشك قتل أخيه بطمَعها وجفائها.. وزوجته كانت دائماً معه.. تساعده.

وجيهان؟ رقيقة كالنسمة.. ذكية قوية وجميلة...

ولكنها ليست زوجته.. ماذا به؟ هل اختلطت عليه الأمور لهذا الحد.. يشعر بشئ من الوحدة.. وبشئ من الإرهاق..

سمع صوتاً دق على باب حجرته.. سأل من على الباب.. هي...

جيهان..

لا.. هذا ليس حلماً.. ماذا تريد؟ الآن؟ ماذا تريد؟

لن يتركها على الباب هكذا في هذه الساعة المتأخرة.. لا يستطيع.

فتح الباب في هدوء وقوة.. هو لا يخشى شيئاً.. وماذا يخشى؟

هل تبكي؟ هل هذه دموع التي يراها في عينيها؟

- أهلا يا جيهان.. ماذا بك؟ هل هناك مشكلة؟

دخلت في بطء.. جلست على المقعد وقالت في صوت مبحوح: علاء.. هل يمكنني أن أتكلم معك؟

قال في تلقائية: بالطبع.

-أنا.. لم أحب زوجي يوماً.. وعندما أخبرني أنه يريد الانفصال.. لم أتأثر.. لا.. لم أتأثر.. قال إنه يريد العودة إلى بريطانيا.. وأن علاقتنا أصبحت فاترة و...

قال في هدوء: فليعوضك الله بمن يستحقك.

- أتمنى هذا أنا أيضاً.. ولكن لا أدري.. لقد تعلمت الصراحة طوال عمري.. عشت في الخارج أكثر مما عشت في مصر بسبب عمل والدي كدبلوماسي.. حياتي في مصر ليست سهلة.. كنت أظن نفسي سأغير شيئاً.. وأرى أني أنا أتغير.. المرارة بدأت تتسرب إلى نفسي...

قال في حماس: لا تجعليها تتسرب إلى نفسك.. حاربيها.. إنك طبيبة ممتازة وسيدة ممتازة.. حاربيها يا چيهان.

أخذت تعبث بكوب أمامها بلا إرادية.. والعصبية والإحباط واضحين على وجهها.

نظر إليها برهة.. لشعرها الأسود.. لعينيها الحزينتين.

لا تستحق هذا الحرمان.. چيهان لا تستحق هذا..

يشتاق لها ويرثي لحالها.

قال في حنان: حاولي من جديد...

انهمرت الدموع من عينيها.

حاول أن يتحكم في الألم الذي سيطر عليه...

وضع يده على يدها.. ربت على يدها وقال في رقة: لا تبكي يا چيهان.

قالت من بين دموعها: لقد فشلت في كل شيء.. كل شيء.. حياتي ضاعت هباءً.

ترك يدها وقال مسرعاً: لا تقولي هذا...بالطبع لم تفشلي...

مسحت دموعها بظهر يدها المرتجفة: إنك لا تعرف شيئاً.. لا تعرف كم قاسيت طوال حياتي.. طفولة بائسة ثم زواج فاشل ثم عملي في هذا المستشفى الكئيب.. أرى الموت أمامي كل يوم.. كل لحظة.. لماذا نعيش إذن؟ إذا كانت الحياة بهذه البشاعة فلماذا نعيش؟

لم ينطق.. كان فقط يريد أن يستمع إليها.. يواسيها.. يحبها.

نظرت له في شوق.. شوق لذراعيه...تحتاجهما.. لا تحتاج غيرهما.. فلتلق بنفسها بين ذراعيه وتموت بعد هذا.. تحبه.. لم تحب أحداً كما تحبه!

قبضت يدها حتى لا تعانقه ثم همست: لم أعد أستطيع!.. هذا العذاب...

نظر لها في دهشة وبراءة: عذاب؟

قالت في عصبية: نعم.. أقصد.. عذاب.. وجودي في .. في هذا المستشفى وعملي مع هؤلاء الـ... بعض الأطباء لا يعرفون شيئاً.. الوساطة والنفوذ قتلت كل شيء جميل.. ليس عندي وساطة أو نفوذ.. فقط عندي شهادة.. لا تعني شيئاً في مصر.. الشهادة لا تعني شيئاً..

قال في حماس: بل تعني الكثير...إنك طبيبة موهوبة وأنا أعرف..

توقف.. المفاجأة عقدت لسانه...

ألقت بنفسها بين ذراعيه!.. هل فعلت؟

شهق في فزع.. ماذا سيحدث الآن؟ ماذا سيحدث؟ تساءل عقله؟

شعر بأنفاسها تقترب من وجنتيه.. تلفحهما كنسيم الهواء الدافيء..

لم يتحرك.. لم يطوق خصرها.. ولم يدفع بها.. بقى ساكناً.

همست وهي تقرب جسدها من جسده: أحبك.. طوال هذه الشهور وأنا أحبك.. أشتاق لك.. لا أريد سواك.. علاء...

زان! دوت الكلمة في أذنيه.

هو سيصبح زانياً.

هو يفعل هذا بزوجته؟

جزاء الزاني.. لا هوادة في جزاء الزاني.

فليضمها مرة واحدة.. مرة واحدة فقط.. هو لم يفعل شيئاً.. هي من ارتمت بين ذراعيه.. هو لم يسع لهذا..

هو...

زان.. أين سيذهب من عذاب الله؟

يحبها.

أين سيذهب من عذاب ضميره.

لو ضمها مرة واحدة.. ربما لو مرر يده على شعرها.. مرة واحدة.. ربما قبّل شفتيها.. مرة واحدة.. ثم يتركها.. سيتركها.

ها هو في موقف الاختيار.. عليه أن يفكر سريعاً.. كل هذا كان يدور بداخل عقله.. كل هذا فكر فيه في ثوان مرت عليه.

ها هو في موقف الاختيار.. عليه أن يفكر سريعاً...

أغمض عينيه في أسى.

عليه أن يفكر سريعاً.

يحبها.. طوال هذه الشهور وهو يحلم بهذه اللحظة.. طوال هذه الشهور وهو يريدها.

لا هوادة في عقاب الزاني.

الزوج المثالي في موقف الاختيار.. زان.

ورانيا.. إنه ليس موضوع رانيا.. إنه يتعلق بعلاقته مع الله.

هو ليس نبياً أو قديساً.

نعم... هو إنسان.

هو رجل.. ويريد امرأة.. امرأة تحبه وتريده.. امرأة يحبها.

ربما لو حرك يديه.. وضعها على خصرها.. مرة واحدة...

حرك يده في بطء.. و..

دفع بها بعيداً في مرارة...

نظرت له في ذهول والدموع تنهمر من جديد ثم همست: لماذا؟ إنك تحبني كما أحبك.. أعرف.. لماذا؟

وكأن كل قوته عادت.. قام وقال في قوة: چيهان.. إنك متعبة.. أنا لم أسمع شيئاً.. هذا لن يؤثر على علاقتنا.. كأن شيئاً لم يكن.. أظن طلاقك كان صدمة.. وأفهم بالطبع.. فـ..

قاطعته في عصبية: كف عن هذا.. إنك تحبني.. قلها.. قلها لنفسك.. لا تريدني من أجل رانيا؟ لن تعرف شيئاً.. أعدك.. لم أكن أريد منك شيئاً.. فقط كنت أريد أن أشعر بذراعيك يحمياني ولو لدقائق.. يا لك من قاس.. إنك.. فقط.. قلها حتى تطفيء نار قلبي قلها وسوف أرحل الآن.. هل تحبني؟ هل تحبني كما أحبك؟ هل كنت تريدني كما أريدك؟ فقط قلها..

قال في صرامة: لا.. لن أقول شيئاً.

– لماذا؟

– ماذا يهم لو كنت أحبك أم لا؟ قلبي من حق زوجتي يا چيهان.. لو قلتها لامرأة أخرى سأكون خائناً وأنا لست خائن.

قالت في عصبية: كل هذه المباديء! مثالي أنت! إنك إنسان.. مثلي.. تشعر بكل ما أشعر به...ولكنك كاذب.. تكذب عليّ.. ألا تفكر فيّ أنا.. في مشاعري؟

قال في حماس: بل أفكر فيك. كرامتك مهمة عندي. لا تفقديها.. لا من أجل رجل ولا من أجل أي شيء.

ضحكت في عصبية: كرامتي! تزوجني إذن إذا كانت تهمك كرامتي.

قال في صرامة وهو يتجه إلى الباب: تعرفين جيداً أنـــي متـــزوج يـــا چيهان.. أنا آسف.. أظن أن الوقت غير مناسب للكـــلام وأنـــت متعبـــة.. هل أوصلك إلى غرفتك.. أين تسكنين؟ في أي فندق؟

قالت والدموع تنهمر من عينيها من جديد: كل هذه القسوة!

– قلت لك أنا آسف يا چيهان.. لا تغضـــبي منـــي. نحـــن أصـــدقاء وسنبقى أصدقاء.

– لا أريد أن أرى وجهك طالما حييت.. أنا لا أحب الكذب..

سارا معاً والمطر الغزير يتساقط .. لم تشعر بالمطر ولم يشعر به..

لا.. لم يشعرا ببرودة الجو...

وصلا فندقها.. لم تنظر إليه.. ولم تودعه.. تركته واقفاً في الصـــقيع.. نظر حوله.. إلى بعض المخمورين.. يبصق أحدهما على الآخر ويســـبه.. سار بسرعة والهواء البارد يصطدم بوجهه الساخن.. نظر إلـــى المـــارة.. إلى رجل وامرأة يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر.. ثم سمع صـــوت شـــحاذ: بعض المال من فضلك.

أدار نظره للشاب الجالس على الأرض.. يغطي نفسه بغطاء قذر ممزق وقديم.. يغطي كل قطعة من جسده فيما عدا وجهه.. بجانبه كلب أســـود.. وصحن به بضعة قروش وسندوتش قديم ورواية رومانســـية رخيصـــة.. التقت عيناه بعيني الشحاذ.. رأى نظرة اليأس والحرمان.. وجهه شاحب.. شعره الأشقر متكمش وكأن أحداً لم يصففه منذ سنوات.. أخرج جنيهاً مـــن جيبه.. ووضعه في الصحن.

ألم ينخر قلبه.. و.. فخر غريب.

كيف يقول الشريف أنه شريف إذا لـــم يحتـــاج المـــال ولـــم يســـرق؟ كيف يقول الزوج أنه مخلص إذا لم يمر بما مرّ هو به؟

إمرأة كان يتمناها.. بين ذراعيه.. يدفع بها بعيداً...

هذا هو الرجل!

لقد نجح.. سيذهب إلى حجرته ويصلي ركعتين...

لا.. علاء لا يرتكب الخطيئة أبداً.

سيعود إلى بيته.. إلى زوجته.. وهذه الآلام في بطنه.. هذه النار التي تحرق أحشاءه ستموت مع الوقت.. عنده كل شيء.. الأطفال.. الزوجة.. البيت.. الوظيفة.. ويحمد الله على ما عنده.

***

نظر إلى أخيه في شفقة وربت على كتفه: ستكون بخير.. ما تشعر به الآن شيء طبيعي.. هذه التجربة ليست سهلة.. ولكن من الآن ستغير نظام حياتك.. لن تأكل بالسمن البلدي.. وستتوقف عن التدخين نهائياً.. وحاول ألا تتشاجر مع زوجتك طوال الوقت.. لا أدري كيف تفعل هذا...

قال الأخ في أسى: علاء.. النساء ناقصات عقل ودين، لا شيء يودي بالرجل إلى التهلكة إلا المرأة.

نظر إليه علاء وابتسم: لماذا إذن تنصاع لرغبات زوجتك دون تفكير.. تحبها كل هذا الحب!

قال محمد في صوت ضعيف: لا أحبها.. بالطبع لا أحبها.. أخشاها.. أخشى لسانها وصوتها.. طنينها كطنين النحلة في وقت الخطر.. أنت تعرف سامية زوجتي.. تعرفها..

ابتسم من جديد وهو يحاول أن يساعد أخاه على النهوض.. أمسك بيده.. والأخ يقول في يأس: كيف أشكرك.. لولاك..

قاطعه علاء: إنك أخي.

سار معه.. نظر له.. لعينيه الزائغة ووجهه الشاحب.. عروقه البـــارزة التي تطوق رقبته ووجهه.

ربت على كتفه في شفقة.

كم هو محظوظ.. أعطاه الله الكثيـــر.. الزوجـــة الصـــالحة.. المـــال والبنين.. والصحة.. ومنذ أسبوع.. منذ أسبوع كان الشيطان يوسوس لـــه. كانت حياته ستنتهي. فليحمد الله على ما يملك. لم يسمع شيئاً من جيهـــان.. يفكر فيها.. يرثي لحالها.. أكان قاسياً معها.. مع المرأة الوحيدة التي أحبها قلبه؟ لا بأس.. كان عليه أن يتصرف بحزم وقد فعل الصواب.. قال لا!

***

هل كانت رحلة ناجحة إذن؟

نعم.. قالها علاء دون تردد.. أخوه عاد سالماً.. وهو.. هو انتصر على هوى نفسه.. يعشق نفسه الآن.. يحب ضميره.. يشعر برضا غريب دافيء ومريح. لم يزل هناك حزن دفين ولكن لا بأس سيموت مع الأيام.

دق على الباب.. لن يفتح بالمفتاح.. سيفاجيء زوجته.. لا تعرف متى سيأتي.. كم افتقد أحمد ورامي!

فتحت رانيا الباب في بطء.. كعادتها وما أن رأته حتى ارتمـــت بـــين ذراعيه في فرح: حمد الله على السلامة يا حبيبي.

ثم نظرت حولها.. أمسكت بالحقيبة وبـــدأت تجرهـــا فأمســـكها منهـــا بسرعة.. ثم شعر بطفليه يمسكان برجليه.. يحتضنوهما.. فحملهما في فرح وفخر.. فخور بهما وبنفسه .. إلتفت إلى زوجته.. كانت ترتدي قميص نوم قديماً بهت لونه من كثرة الغسيل.. وشعرها مربوط بطريقـــة عشـــوائية.. لم يرها هكذا منذ زمن!

وكأنها لاحظت نظرته.. تركت الحقيبة وقالت مسرعة: آسفة يا علاء.. لم .. لم أكن أعرف أنك ستأتي اليوم.

ثم جرت إلى حجرتها في خجل.. وكأنها فتحت الباب للبوسطجي وهي عارية تماماً!

لا.. فلينس شكلها الآن.. لا.. يا إلهي سيكرهها!

كيف يراها هكذا؟ "زوجك لا يرى منك إلا ما يسره".

فتح باب الحجرة وهي تمسك بقلم الكحل في ارتباك وقال في هدوء: رانيا.. لا يهم.. ليس عليك أن تتجملي طوال الوقت!

لا.. فليخرج الآن.. هي لا تريد أن تراه الآن!

هي ليست سعيدة بعودته! لماذا لم يخبرها بموعد عودته؟ لو عرفت والدتها أنها قابلت زوجها هكذا.. بقميص النوم القديم!

من الغد ستلقي بهذا القميص من النافذة.. ومن الغد عليها أن تتجمل طوال النهار والليل.. وشعرها هذا.. فلتفعل شيئاً لشعرها هذا...

لا هي ليست سعيدة.. كان وراءها الكثير من "التحضير" كانت تكره الامتحانات المفاجئة في المدرسة.. والآن تكره الزيارات المفاجئة...

قال من جديد: ألا تريدين الكلام معي؟

قالت في ترجٍ: دقائق فقط يا علاء.. أتركني دقائق...

خرج من الحجرة.. إحتضن طفليه وهو جالس على الأريكة ثم بدأ يفتح حقيبته يخرج منها الهدايا.. لطفليه...

وهما يتكلمان بلا انقطاع.. جاءت زوجته جلست في بطء وشيء من الخجل ولم تنطق.. وكأنها المرة الأولى التي ترى فيها زوجها.. حملقت فيه في صبر وهدوء...

حتى قال هو: كانت رحلة متعبة ولكن حمداً لله.. صحة أخي تتحسن.. ولنتِ كيف حالك؟

ماذا تقول؟ لقد باغتها بسؤاله.. فلتفكر قبل أن تتكلم.. فلتفكر في هدوء.. ماذا تريد؟ وماذا يجب عليها أن تقول؟

-أنا بخير.. لا لست بخير.. فقد افتقدتك.. أنا لست بخير.. لقد افتقدتك!

إبتسم وقال: وأنا أيضاً افتقدتك.. آه يا رانيا.. كنت أظن أنـي نسـيت بريطانيا.. ست سنوات لم أعد إليها.. ولكني لم أزل أتـذكر كـل شـارع هناك.. التمريض.. ما يعجبني في بريطانيا هو التمريض.. لـدينا كفـاءة عالية هنا في مصر ولكن لا توجد ممرضات أكفاء.. في الحقيقة.. المشكلة هي مشكلة سيولة.. ليس لدينا المال الكافي.. فـي بريطانيـا الممرضـات يتقاضين أجراً كبيراً.. خمسة أضعاف أجر الطبيب في مصر.. لا يمكنـك أن تتطلبي الكثير من ممرضة تتقاضى أجراً ضئيلاً.. الألم في كل مكان.. ولكن الأمل موجود.. لأن هناك كفاءة عالية و...

نظر لها.. تستمع في يقظة غريبة.. وكأنه أسـتاذها يلقـي محاضـرة هامة.. قال فجأة: ما رأيك؟

باغتها من جديد!

رأيها يتلخص في جملتين: لا تحب الكلمات الكبيرة!

ومن لا يعجبه شئ يحاول تغييره دون انتقاد!

هذا رأيها!

قالت مسرعة: أتفق معك بالطبع.. ولكن قل لـي.. إحكـي لـي عـن التمريض في بريطانيا...

والدتها تقول أن عليها أن تبدي لزوجها أنها تتفق معه.. عليها أن تبدي لزوجها أنها بريئة.. ولا تعرف الكثير.. الرجل مثل علاء الدين.. يريد أن

يأخذ زوجته في رحلة على البساط السحري ويجعلها ترى العالم كله.. بعينيه!.. أما إذا كانت محنكة وتعرف كل شيء.. فما فائدة الرجل؟ فلنتظاهر بالجهل إذن.. وربما بعض الغباء!

وكأنه لم يسمعها.. قال فجأة في هدوء وقوة وهو ينظر إلى عينيها: قابلت جيهان في لندن.

إلتقت عيونهما...

لم تنبث بكلمة.. كانت تريد أن تسأل الكثير من الأسئلة ولكنها لم تنطق..

فقال في ثقة: لقد طُلِّقت.. المسكينة.. تستحق كل خير.. أظن أنها ذهبت إلى لندن في أجازة.. فبعض عائلتها هناك على ما أعتقد.. والدتها.. ربما فهي منفصلة عن والدها.

التقت عيونهما من جديد.

لا.. زوجها مثالي.. ترى الثقة في عينيه.. ينظر لها نظرة ثاقبة.. بلا أدنى حرج!

لا لم يرتكب الفاحشة.

لا.. ثم ماذا؟

ربما تبدو رانيا غبية.. ربما هي غبية.. لا أحد يدري.. ولكنها تعرف زوجها.. لا تفعل شيئاً سوى دراسة زوجها.. رد فعل زوجها.. تحركات زوجها.. وتعرف أنه أبداً لن يرتكب الفاحشة...

وهناك شيء ضئيل بداخلها حزين لأن زوجها لم يرتكب الفاحشة! لا تريد أن تتحمل ليالي طويلة ترى اليأس والشوق في عينيه من جديد.. تتعذب!

تتعذب وهي تراه هكذا! الخطأ يأتي منها.. عليها أن تتغير.. ها هي لم تزل تأكل!

ولم تغير لون شعرها.. ولم تزل تخرج في الشمس..

ولكن جيهان طلّقت!.. ماذا.. ماذا لو تزوجها؟

لن يفعل!

تعرفه وتعرف أنه لن يفعل!

الرجل المثالي لا يظلم ولا يزني.. لن يظلمها.

ماذا يقلقها إذن؟

لا شيء يقلقها.. فقط اليأس في عينيه يعذبها.. يستفزها.

الصبر...

الصبر.. هو ما تحتاج.. ها هو قد عاد.. من الغد سوف تبدأ "خطة خمسية" جديدة من أجل أن تصل إلى هدفها!

في يوم قريب سيحبها زوجها.. قريباً سيفعل!

- وكيف حال عائلتك يا رانيا؟

- بخير.. لقد زرت طنط فاطمة أيضاً.

نعم زارت والدته.. تقريباً كل يوم.. فرِضا والدته ربما يساعدها في خطتها.

- أصيلة يا رانيا.

بدأ يتكلم مع أحمد ورامي.. خرجت منه ضحكة وأحمد يمسك بأنفه.. بدأ يصارع رامي...

نظرت له.. شعرت برجفة في قلبها.. داخل قلبها.. تريد أن تغرقه بالقبلات الآن.. ولا تستطيع..

لا.. هل أصابها الجنون.. إذا كان زوجها يريدها سيأخذ هو خطوة المبادرة.. أبداً لن تأخذها هي.. فوالدتها تقول أن المرأة الجريئة دائماً رخيصة أمام زوجها.. الرجل هو من يبدأ.. فلو بدأت هي سيظن أنها وحش كاسر ينقض عليه.. وربما يظن أنها لا تستطيع السيطرة على نفسها أو أنها محنكة.. يا إلهي! لا.. فلتنس هذه الأفكار المجنونة.. إذا كان يريدها سيأخذ هو خطوة المبادرة.. سوف تبقى في مكانها ساكنة تشاهده وهو يلعب مع أطفاله..وتملأ عينيها منه".

***

إبتسم في ثقة للسيدة ذات العباءة الرمادية.. وهو يصافحها وقال: مبروك يا ستي.. إبنك سيخرج اليوم.. لو لم تتركيه في المستشفى لمات.

بدأت السيدة تدعو على الدكتور عبد الكريم وتدعو للدكتور علاء.. ثم تزغرد وتزغرد...

لقد سمع علاء آهات وصراخ الكثير من النساء منذ عاد إلى الإسكندرية.. وسمع زغاريد الكثير أيضاً .. أحياناً تمتزج الزغرودة بالصرخة وأحياناً لا يستطيع أن يميزهم.. كما قال لنفسه ولجيهان.. في مصر الألم والنشوة ممتزجان.. شعرة تفصل بينهما.. وأحياناً يختلطان وينصهران وهذا ما يخيفه...

أحياناً يخاف من بداية الزغرودة، لا يدري أهي آهة تدوي في أذنه .. أم صرخة فرح.. تخرج من قلب ممتليء بالنشوة.. يخاف الناس هنا.. لا يدري ماذا يريدون؟

من هو؟

لماذا يشعر أحياناً بنفس شعور چيهان.. إنه متفرج يشاهد مسرحية.. أبطالها من أقاربه ولكنه لا يأخذ أي دور بطولة فيها...

حتى مع زوجته.. لا يشعر بالراحة.. لا يشعر بأنه بطل في علاقتهما.. بل شخص عليه واجب ويؤديه على أكمل وجه..

رمقه عبد الكريم بنظرة كلها كُره.. علاء كان على صواب.. علاء اكتشف أن الطفل مصاب بالتيفود وعبد الكريم مع خبرته الطويلة لم يكتشف.

كان على صواب إذن.. شعر بفخر من جديد.. ثقة وفخر...

سار في هدوء.. أيفتقدها؟

لا.. لم يرها منذ ذلك اليوم في لندن.. لم يرها .. في أجازة بدون مرتب.. وهل ستعود؟

حمداً لله أنه استطاع أن يسيطر على نفسه في تلك الليلة في لندن.. الآن تبدو كالحلم البعيد...

نظر إلى ملفه وإلى ساعته.. كم زيارة منزلية اليوم؟.. لا يذهب إلى العيادة سوى يومين كل أسبوع.. اليوم عنده ثلاث زيارات منزلية.

كم يتمنى أن يقضي وقتاً أطول مع ولديه.. ما عدا يوم الجمعة بالكاد يراهما...

ويوم الجمعة يذهب مع أحمد إلى جامع ابراهيم للصلاة.. ورامي يصرخ ويتشبث بأرجله..

يدور اليوم عادة حول وجود مكان للسيارة قبل صلاة الجمعة.. ثم الذهاب إلى والديه وحماته وحماه... و...

مَن زوجته؟

بنت طيبة تزوجها من أجل هذا.. ولم يندم.. أعطاه الزمن الكثير..

نظر إلى الڤيللا الكبيرة في حيّ سموحة.. ثم إلى اسم المريضة.. رُقيّة المنيسي.. من تكون؟

سار.. دق جرس الباب.. ففتحت طفلة صغيرة.. إبتسمت وقالت في شيء من الفرح.. شيء من الخوف: مامي...مامي .. الدكتور يا مامي..

جاءت سيدة تبدو في نهاية الأربعينات.. إبتسمت له.. تبدو في قمة تألقها.. وكأنها على وشك الذهاب إلى حفل ملكي ومقابلة الملك شخصياً أيضاً ...

قالت وهي تشير له بتسلق السلم: حماتي في الدور الأول.

تسلقت السلم بجانبه.

نظر حوله.. ڤيللا جميلة.. ولكنه لا يحب الفلل.. شقته أربع غرف وصالة.. جميلة وصغيرة...

أمسك بأكرة الباب القديمة وفتح الباب.. كانت رقية المنيسي مستلقية على سريرها وفي يدها ريموت التليڤزيون وبجانبها ريموت الڤيديو "والدّش"! وكومة من الأدوية والشيكولاتة.. والمال المتناثر.. والمناديل الورقية.. نصفها مستعمل ونصفها نظيف وبعض الأوراق عليها أرقام مختلفة للهاتف الجوال.. وأرقام البقال والمكوجي والحلواني.. وخمس علب حليب فارغة...

وعلبتين عصير فراولة...

كانت سيدة تجاوزت الخامسة والثمانين.. على ما يبدو...

قالت زوجة إبنها وكأنها لاحظت كيف ينظر علاء إلى السرير والأشياء على السرير: معلهش.. طنط رقية مش بتحب حد ينظف حجرتها...

قال مسرعاً وهو يبتسم: لا يوجد مشكلة.

قالت السيدة وهي على وشك الخروج: سأتركك مع طنط رقية.. هل تريد أن تشرب شيئاً؟

- شكراً.

أغلقت الباب.

تفحصته العجوز بعينيها الثاقبتين الصغيرتين.. تحيط رأسها بغطاء رأس أبيض.. وترتدي نظارة سميكة من طراز الستينيات.. مستديرة ومحاطة بإطار أسود سميك.

كانت سيدة صغيرة ومنكمشة.. أشارت له بالجلوس بأصابعها المنكمشة.. حدق في أصابعها.. كل أصابع يدها اليمنى متجهة إلى اليسار.. إعوجاج غريب بلا سبب يراه في مرضاه المسنين.. وكأن الأصابع قد ناءت بحمل الحياة بينما صاحبها لم يزل يعيش.. نظر إلى تجاعيد وجهها الأبيض.. وإلى طاقم الأسنان الذي تضعه في كوب بجانب سريرها.. قال في رقة: مساء الخير.. إيه.. بتشتكي من إيه؟

نظرت له، تفحصت وجهه ثم قالت: أريد أن أسمع أخباراً سعيدة فقط.. قل هذا لابني وزوجته.. لا أريد أن أعرف مَن مات اليوم...

ثم نظرت له.. لنظارته الرفيعة.. لعينيه الثاقبتين ولحاجبيه السوداوين المستقيمين.. ثم نظرت للشعر الذي يظلل ذراعه.. وهمست لنفسها: لماذا لم أقابل هذا الرجل منذ خمسين عاماً؟.. لم يولد منذ خمسين عاماً!

ولكنها تحب الرجال.. حب بريء.. الآن في هذه السن.. لا تريد أن ترى النساء...

وتعشق الرجل الوسيم.

وهذا الطبيب الشاب.. تتمنى أن يبقى معها مدة أطول..

رقية تحب الفرح.. وتكره الجنازات.. حتى جنازات صديقاتها وأخواتها وأولاد عمها وحتى جنازات أولاد أخواتها.. لا لم تحضر أياً منهم.

أفراح أحفادها وأصدقاء أحفادها تحضرها جميعاً...

وتحب الطبيب الوسيم.. يذكرها بأول حب في حياتها.. كان رجلاً وسيماً.. ولكنها لم تتزوجه...

قالت في صوت متحشرج: بطني تؤلمني.

أمسكت جلبابها بيدها المرتعشة ورفعته إلى أعلى.. فبدىَ شكلها غريباً..

شراب سميك من الصوف.. وأرجل ممتلئة.. وبطن تبدو كبحر عميق.

وضع إصبعه على بطنها في قوة: هُنا...

- لا يا بني.. فوق.

ضغط من جديد.

- نعم هنا.. آه يا رب فالأمُت لأستريح.

- أنت الخير والبركة يا.. بماذا أناديك؟

قالت في صوتها المتحشرج: إنك من عمر أحفادي ولكن فلتناديني برقية.. فقط!

هل تغازله هذه العجوز؟ ربما.. ولكنه معجب بها.. بها شيء غريب.. قوة ربما.. راحة ربما.. هو معجب بها.. لا يدري لماذا.

- قل لي من أنت؟

ضحك وقال: علاء عبد الله متخصص في الباطنة والقلب.

ضحكت ضحكة تشبه صوت ترام الإسكندرية عندما يصل إلى محطة الجامعة...

- تخصص جميل يا دكتور القلوب.. من ماذا أشتكي؟

وضع يده على جبهتها ثم قال: ربما قرحة في المعدة.

- نعم قرحة.. فالأكل هنا فظيع والطباخون قذرون وزوجة ابني مشغولة بزوجها طوال الوقت.. غراميات زوجها.. ومشاكل أولادها المراهقين والأطفال...

قال في حزم: ربما تحتاجين الذهاب إلى المستشفى.

قالت مسرعة: لا.. فالأمُت في حجرتي.. لا أحب المستشفيات.

دخلت زوجة ابنها بصينية الشاي.. وضعته على المنضدة: ماذا بها يا دكتور؟

قال وهو يقوم: أظن عندها قرحة.. تحتاج عناية خاصة.. سوف تحتاج لممرضة لتبقى معها.. وربما تحتاج الذهاب إلى المستشفى.. فالنُجرِّب هذا الدواء أولاً..

كتب إسم الدواء ...

- يا دكتور.. فلتبق معي دقائق.. أريد أن أسألك على بعض الأشياء..

نظر إلى ساعته.. دون أن تلاحظ ثم ابتسم قائلاً: اسألي عن أي شيء...

إبتسمت .. لا.. لا يستطيع أن ينطق اسمها هكذا...

سيتحاشى نطق اسمها.

- لديك أولاد يا دكتور؟

ضحك من جديد: ظننتك ستشتكين من شيء آخر.. نعم عندي ولدان.. أحمد ورامي.

–ربنا يخليهم لك.. وزوجتك طبيبة مثلك؟

– لا.. هي لا تعمل.. لا تستطيع.. فالولدان يأخذان كل وقتها.

– حظها جميل.

– هذا ما يظنه الكثير.. ولكنها مظلومة معي.. فأنا أعمل كثيراً.

أشارت بثلاثة أصابع .. له بالجلوس: أجلس يا بني.. أجلس فأنا لا أجد عاقلاً لأتكلم معه.. هل تصدق؟ ابني يريد الزواج مرة ثانية.

قال في دهشة: هذه زوجته الأولى؟

– نعم.. تهتم بنفسها ومظهرها.. ولكن عندما يريد الرجل شيئاً لا يوقفه سوى الطوفان.. يحب أخرى.. لن أتحمل هذا.. لقد فعلها زوجي من قبل.. تزوج سراً خمسة عشر عاماً.. وعندما عرفت.. صـرخت وصـرخت.. ولكن المرأة ضعيفة والرجل مفتري.. ماذا بيدي أن أفعل؟ تعايشـت مـع الوضع.. لم أتقبله فقط تعايشت معه.. كان غنياً جداً.. عندما يجري القرش في يد الرجل تقول يلّه السلام!

نظر إلى ساعته من جديد دون أن تشعر.. لن يستطيع أن يقضي كـل هذا الوقت مع رقية.. وكيف يتركها؟ لا يستطيع هذا أيضاً.

ابتسم قائلاً: أتمنى ألا يكون كل الرجال هكذا.

– لا.. أنت مختلف.. تبدو رجلاً مثالياً.

– فقط لا أحب خلط الأمور.. ماذا يحتاج الإنسان سوى زوجة صالحة تصلح أماً لأولاده وأولاد في صحة تامة.. الانسان بطبعه طماع.

– نعم طماع.. متى سأراك يا بني؟

– ربما بعد أسبوع.. قبل العيد إن شاء الله.

عندما خرج من الفيللا.. جلس على سور إحدى الفلل.. شعر بشجن غريب.. حرمان.. رأى الحرمان في عيني رقية المنيسي.. وكأنها عاشت ثمانين عاماً تتطوق للمستحيل.. أهذا مصيره أيضاً؟

ترى من سيشعر بالحرمان؟

هو.. حرمان من امرأة أحبها بلا أمل وعندما أصبحت بين يديه دفع بها بعيداً...

إبتسم لنفسه في مرارة وهو يسير بين الفلل في الظلام.. لماذا كل هذا الظلام؟

أهو الحرمان الذي ستشعر به چيهان طوال حياتها.. بلا ذنب اقترفته سوى أنها أحبته هو...

أهو الحرمان الذي ربما كانت ستشعر به زوجته لو ترك العنان لمشاعره؟

شعور غريب بالحزن تملكه.. لا يدري لماذا..

هو سعيد.. هو يعرف أنه سعيد.. عنده كل شيء.. لن يضحي بما في يده.. لن يترك العنان لمشاعره. رقية المنيسي عاشت حزينة بسبب زوجها.. لا لن يفعل هذا بزوجته.. كيف يمكن لإنسان أن يحطم حياة إنسان آخر بهذا الشكل؟ كان يرى الاشتياق في عيني رقية.. الاشتياق إلى من يحبها.. حتى في هذه السن كان يشعر بجفاف حلقها.

***

أخذت رانيا تفكر في تمعن في أمر كعك العيد.. هل تخبزه في البيت أم في المخبز؟

إذا خبزته في البيت سوف يتطلب هذا مجهوداً كبيراً.. وإذا خبزته في المخبز سيرى كعكها البواب والخباز والمارة في الشارع.. وربما يشهق أحدهم في وجه كعكها.. فيفسد!

هذا العام لو كان الكعك جميلاً ولذيذاً سيحبها زوجها.

ربما عليها أن تسأل زوجها عن رأيه.. وما برنامج العيد؟ أسبوعان وسوف يأتي العيد.. عليها أن تفكر في برنامج.. ستذهب اليوم إلى شارع بيلوز في الإبراهيمية تشتري لأولادها بعض الحلوى من المخابز اليونانية القديمة.. ثم ستقابل أختها وأمها ليفطروا معاً.. نساء فقط.. فوالدها في المسجد طوال رمضان وزوجها مشغول بامتحانات نهاية الفصل الدراسي...

امتلأ المطعم قبل أن تلتفت لتبحث عن أختها وأمها.. أناس ...أناس.. في كل مكان.

وجدتهم.. أشارت إليهم.. رأوها.. إتجهوا إليها.. جلست مع والدتها وأختها وولديها وابنة أختها.

جرى النادل بسرعة مذهلة.. صوت القرآن يدوي في كل مكان.. وما أن انطلق مدفع الإفطار حتى ألقى النادل بكوب قمر الدين وطبق فول على كل طاولة.. ولم يترك لأحد فرصة لطلب شيء آخر.. أو الاستفسار عن أي شيء.

وهل تسمع شيئاً؟ انكبَّ الجميع على الأكل في صمت...

الأطفال بدأوا في الصراخ والالتفاف حول الطاولة.. لا يهم.. فكل الناس تحب الأطفال.. ولكن أحمد ورامي ليسا بالأطفال العاديين!

قامت رانيا في ارتباك ومعها أمها وأختها وقالت مسرعة: دقائق ونكون في البيت.. سنشرب الشاي في البيت.

صرخت في وجه أحمد.. بكى.. تشاجرت معها والدتها لأنها تصرخ في وجه أحمد.. فأحمد هو كل حياتها الآن...

نفخت رانيا في غيظ ولم تنطق.

لا.. هي لا تشعر بالضيق بسهولة.. وأحمد ورامي قادران على هذا أكثر من أي شخص آخر.

ما أن دخلوا الشقة حتى تنهدت في ارتياح وبدأت في إعداد الشاي.

دخلت أختها المطبخ وراءها وقالت: رانيا أين زوجك؟ لماذا يتأخر هكذا؟ بدأت أقلق عليه "يا مآمنة للرجال يا مآمنة للميه في الغربال".

قالت في عدم ارتياح: أنت تعرفين علاء.. علاء لا يخطِيء.

قالت رشا في فضول: أبداً أبداً.. ألم تتشاجرا أبداً.. لم يصِح في وجهك طوال خمس سنوات ولو مرة؟

قالت في ثقة: أبداً.

- يا بختك!

حركت رانيا فمها وهي تقرأ المعوذتين وتقول ما شاء الله!

ثم أكملت رشا: ماذا تفعلين.. أنت تطالبين مني النصيحة! يجب أن أطلبها أنا منك.. فزوجي.. بخيل ومادي وفظ.. ولكني لا أصمت إذا صرخ فيَّ أفضحه وأفضح عائلته!

قالت رانيا في يأس: هل يحبك؟

- نعم يحبني.. وعلاء.. بالطبع يحبك.. أنا متأكدة.. آه رانيا.. تعرفين شيئاً.. محمود عاد من بريطانيا أمس.. أظنه سيتصل بك أنت وعلاء بالطبع.

قالت في لامبالاة: كيف حاله؟ هل تزوج في بريطانيا؟

- لا أظن هذا.. ولكن والدتي مقتنعة أنه تزوج من إنجليزية وطلقها دون أن يدري أحد.

محمود...

حملقت رانيا في الموقد لثوان.. ماذا يمثل لها محمود؟ لا شيء.

ذكرى حب المراهقة.. كانت تنتظره في صمت.. تظنه سيتقدم للزواج منها.. كل يوم.. ولم يفعل.. سافر وعوضها الله برجل أحبته كما لم تحب شيئاً قط.. وسوف يحبها.. قريباً.. بدأ يحبها هي متأكدة...

عندما عاد زوجها في المساء جهزت له السحور.. فول وجبن.. فهو لا يحب أن يأكل كثيراً في السحور.. وقمر الدين بالطبع وخُشاف...

جلست أمامه وهي تضع قطعة طماطم في فمها فقط وكأن هذا هو كل ما ستأكل في هذا اليوم.. نظر لها في دهشة ولم ينطق.. لن يطلب منها أن تأكل.. يعرف أنها لن تفعل.

تمدد على السرير قائلاً: كان يوماً شاقاً يا رانيا.. كم أتمنى أن أذهب معك إلى أجازة في مكان بعيد وأنسى كل شيء عن المستشفى والمرضى والامتحانات والزيارات المنزلية والعيادة.

ابتسمت وقالت وهي تجلس على طرف السرير: نعم كم أتمنى هذا...

- كيف حال والدتك ورشا؟

- بخير.. أتعرف محمود ابن خالي؟

قال في حماس: بالطبع أعرف محمود ابن خالك حتى من قبل زواجنا كيف حاله؟

- عاد.. والدتي تقول أنه تزوج من إنجليزية.. وطلّقها ولكن حرام أن نتكلم هكذا أليس كذلك يا علاء؟

إبتسم من جديد: يجب أن ندعوه على الإفطار يا رانيا.. فأنــا أحبــه.. شاب ذكي.

- كما تريد يا علاء.

نظر لها لثوان ثم أغمض عينيه قــائلاً: مــاذا ســنفعل هــذا العيــد؟ عندي يومان أجازة.. تريدين أن تقضيهما هنا؟

- كما تريد يا علاء.

- لا.. كما تريدين أنت.. أين تريدين الذهاب؟ هــل تحتــاجين شــيئاً قبل العيد؟

- كنت أريد أن أتناقش معك في موضوع كعك العيد.. هل نذهب بــه إلى المخبز أم لا؟

قال في شيء من الملل: هل يمكن أن نتناقش في هذا الموضوع غداً.. فأنا متعب جداً يا رانيا اليوم..

***

أخذت أم رانيا تمسح عرقها بمنديل أبيض كعادتها وهي تطبخ والعرق لا يبالي.. لم يزل يتصبب من جبهتها والأطفال يصــرخون.. يلعبــون.. يتكلمون ورانيا تجلس بجانب أختها.. أمام إبن خالها في خجل وصــمت.. هكذا هي.. تجلس تضم ركبتيهــا.. ذراعيهــا ممــددة بجانــب جســدها في استسلام.. كلماتها محدودة.. ترتدي بنطلوناً أسود فضفاضــاً وقميصــاً أبيض فضفاضاً وحجاباً أسود.. عيناها لا تتركان الأرض وأحياناً تتلعــثم وخاصة إذا كان زوجها موجوداً.

فجأة صاح إبن خالها محمود كعادته: رانيا! تبدين مختلفــة.. كبرتــي يا رانيا.

لم تجب.. استمرت تحملق في الأرض بلا أي كلمة.. أما رشا فكانت تمزح مع ابن خالها.. يضحكان سوياً.. يتناقشان.. يصيحان.. لم يتغير محمود.. تلقائي...بريء.. صوته عالٍ وضحكاته كثيرة...

- كيف حال علاء يا رانيا؟

قالت في صوت هاديء: بخير.. لديه الكثير من العمل.. مسكين طلب مني أن أدعوك للإفطار إذا كان عندك وقتاً قبل العيد.

قال بصوته العالي: طبعاً عندي وقت.. كيف أرفض دعوة علاء.. لولاه لكنت محاسباً بسيطاً الآن!

نظرت له في شيء من الدهشة! وما دخل علاء بسفر محمود؟

قالت رشا في فضول: هل ساعدك علاء على السفر؟

صاح في شيء من الدهشة: أتعنين أنك لا تعرفين يا رشا؟ بالطبع ساعدني.. هو من أخرج لي الفيزا.. قبل حتى أن يَخطُب رانيا.. عندما كان يتردد على عمي ليعالجه.

قالت رشا مسرعة: وهل تزوجت هناك يا محمود؟

نظرت لها رانيا في فزع.. هذه الجرأة.. كيف تملك أختها كل هذه الجرأة؟ كيف تسأل عن أشياء لا تخصها هكذا؟

قال وهو يرفع كتفيه في لامبالاة: لا.. لم أتزوج.. هل عندك عروسة؟ أنا جاهز للزواج.. آه خسارة يا رشا إنك متزوجة.. ولكن علاء.. لئيم زوجك هذا يا رانيا.. هل تعرفين هذا؟

لم تنطق.. نظرت له في ضيق.. كيف يقول هذا على زوجها.. حتى لو كان مازحاً؟

فقالت رشا في فضول: لماذا؟

– لماذا !؟ أتسألين لماذا يا رشا! لم أكن أتوقع أن أعود لأجده قد تزوج رانيا.. كان يتخلص مني إذن! هو من شجعني على السفر ليتخلص مني.. أخبرته برغبتي في الزواج.. وأخبرته أني أفكر في الزواج من رانيا.. ثم ماذا فعل؟ قال لي أني لم أكوّن نفسي بعد.. إن من الأفضل أن أسافر أولاً وأنسى الزواج الآن.. آه.علاء ده طلع ميه من تحت تبن!!!

طوال كلامه.. ورشا تضحك ورانيا..

رانيا تنظر له في ذهول وفزع!

ما هذا الهراء!

علاء تخلص من محمود. محمود كان يريد الزواج منها. وعلاء شجعه على السفر ثم تقدم لها..

قالت رشا : آه! قصة حب إذن يا رانيا! زوجك يحبك منذ زمن بعيد.. هل فهمتي الآن؟

لا لم تفهم.. ولا تفهم!

لماذا كل هذه الحروب ليتزوج منها علاء؟ لماذا هي؟

ولماذا تزوجها إذا لم يكن يحبها؟

تشعر بشيء من الصداع.. ولن تفكر في كل هذا.. فمحمود يقول كلاماً كثيراً وأغلبه هراء!

ولكن.. هي لا تحب هذا المزاح.. تشعر بالحرج منه.. ليتها لم تدعوه.. الآن لا تستطيع أن تلغي الدعوة.. ماذا لو قال هذا الهراء أمام زوجها! يا إلهي.. لو فعل! ستكون مصيبة عليها!

كانت تشعر بالقلق.. طوال اليوم تشعر بالقلق.. ماذا سيحدث عندما يأتي محمود؟ ماذا لو أغضب زوجها؟

لا لن تتكلم مع زوجها عن هذا الآن! لا تريد أن تغضبه.. يبـدو قلقـاً هذه الأيام.. عندما عادت إلى البيت.

وضعت يدهـا على كتفه وقالت في حنان: هل أنت بخيـر يا عـلاء؟ هل هناك ما يقلقك؟

- نعم يا رانيا.. المال يقلقني.. لم يعد لدينا شيء يـا رانيـا.. أخـاف على الأولاد!

قالت في حماس: ربنا يفرجها من عنده .. لا تقلق أرجوك.. فأنت تعمل كثيراً وصحتك.. يجب أن تهتم بصحتك.

إبتسم وقال وهو يخلع سترته: كيف حال محمود؟

بلعت ريقها في ارتباك: بخير.. ولكنه.. مجنون.. تعرف محمود دائماً مجنون..

قال في حزم: لا تسبيه يا رانيا حرام.. كم أرثـي لحالـه.. وحيـداً.. عليه أن يتزوج.. فلنبحث له عن عروسة!

قالت في نفس الارتباك: ليس.. ليس لدينا وقت لهذا.. وأنت مشـغول.. ندمت أني دعوته غداً.. ولكن..

قاطعها: سوف أتأكد من وجودي.. فأنا أريد أن أراه.

***

لم تشعر بعدم الراحة هكذا منذ زمن: يا رب.. يا رب أُستُر...

لا تريد لهذا التافه أن يغضب زوجها..

دعت رشا أيضاً حتى تُقلّل من حدة المناخ...

جلسوا جميعاً على مائدة الافطار في صمت.

حتى بدأ علاء حديثه لمحمود: كيف حال لندن؟ كنت أود أن أقابلك هناك الشهر الماضي ولكن لم يكن عندي وقت.. فأخي كان مريضاً...

قال محمود وهويأخذ ملعقة أرز: لندن بخير.. ولكن لا يوجد بها هذا الطعام اللذيذ

امسكت رانيا بالمقعد الذي تجلس عليه.. وكأنها تستمد قوتها منه.. يا رب أستر.

- إذن لم تتزوج إنجليزية هناك يا محمود؟

- لا.. كانت عندي صديقة ولكن لم تفهمني.. هل عندك عروسة يا علاء؟

تفحص علاء محمود، هو يعرف هذا النوع من المصريين، النوع الذي يذهب إلى بريطانيا ليدخر المال.. يذهب في مهمة واحدة هي جمع المال للعودة للوطن.. محمود ما أن وصل إلى بريطانيا حتى سأل عن أقرب دكان يبيع الملوخية.. محمود لا يأكل السمك يوم الجمعة كما يفعل الإنجليز ولا يأكل اللحم والبطاطس يوم الأحد وأبداً لم يذق البطاطس المشوية. محمود كان يشم رائحة المصريين من على بعد أميال وليس عنده أي أصدقاء إنجليز.. صديقته كانت مؤقتة ولم يكن لها أي دور في حياته. رحل وعاد وكأنه رحل إلى محافظة أخرى داخل مصر أو رحل إلى البرازيل أو أمريكا أو الكويت. المناظر مختلفة ولكنه لم يرها.. كان في مصر طوال الوقت. لم يكتسب شيئاً ولم يعط شيئاً.

إبتسم علاء: يجب أن نجد لك عروسة.. قل لي هل جئت لتستقر في مصر؟

أمسك بقطعة دجاج وقال في عدم اكتراث: نعم.. لقد سئمت الغربة.. لا استطيع أن أكون سعيداً سوى وسط أهلي.

نظرت له رانيا فجأة.. أهذا هو الشاب الذي كانت تحبه في الماضي.

لم يتغير.. يبدو ضئيلاً.. يبدو لا شيء بجانب زوجها.. كيف أحبته؟ وهل أحبته؟ وهل كان يحبها إذن؟

قامت مسرعة وهي تمسك بأحمد لتغسل له يديه وتدعو الله أن تنتهي تلك الزيارة سريعاً.

نظر لها زوجها.. لماذا ينظر لها؟ لماذا الآن؟ هل لاحظ شيئاً؟

قام في هدوء.. ذهب إلى المطبخ.. حيث كانت وقال: هل أنت متعبة يا رانيا؟.. أعرف رمضان "متعب".. بالنسبة لك.. هل تريدين أن ترتاحي الآن؟ سأجهز أنا الشاي.. إجلسي أنت مع محمود ورشا.

لا.. لا تريد هذا.. قالت وهي تضع ابريق الشاي على الموقد: أنا بخير.

ولم تدر بنفسها والإبريق يسقط من يدها على الأرض.. فتحترق أصابعها...

لماذا ينظر إليها.. لا تحب أن تشعر أن أحداً يشاهدها عن قرب هكذا... لا تشعر بالراحة.. وهو يحدق فيها.. مشاعرها متضاربة.. لماذا لا يذهب بعيداً ويتركها الآن؟ لماذا يحدق فيها؟

أصابعها تحرقها.. ظهرت الدموع في عينيها

أمسك بأصابعها في تأثر ووضعهم تحت الماء.. قائلاً: إنك فعلاً متعبة.. ستذهبي لتنامي...الآن.

ثم أمسك بأصابعها قبلهم في حنان قائلاً: هيا اذهبي لتنامي...

نظرت له في رجاء.. لماذا كل هذا الحنان؟ لماذا..

همست وهي تدخل حجرتها: إنك أعظم رجل رأته عيني..

إبتسم لها في رقة وهمس:هيا نامي يا حبيبتي.

وضعت رأسها على الوسادة.. أغمضت عينيها وهي تفكر.. هل يحبها زوجها؟

لا.. عندما يحبها ستعرف.. لم يحبها بعد.. ولكنه سيحبها.. قريباً سيحبها.

قريباً جداً...

"والنبي يا رب اجعله يحبني"

***

مرة أخرى دخل فيللا رقية المنيسي.. السيدة العجوز المغرمة به.

فتحت زوجة ابنها من جديد.. تسلق السلم الذي يعرفه جيداً ودخل الحجرة.

ما أن رأته رقية المنيسي حتى ابتسمت.. هذه المرة كانت ترتدي طاقم الأسنان.. وكان كوب الماء فارغاً.. به ماء معكّر من الطاقم ولا شيء آخر

- كيف حالك اليوم؟

- تزوج.. ابني تزوج.. المجنون.. ما شابه أباه فما ظلم...

- وبطنك.. هل هناك ألم؟

- ألم في رأسي يا علاء.. ألم.. هل رأيت الغباء مجسماً أمامك من قبل.. أولادي.. الغباء بعينه! إبني تعدّى الخامسة والخمسين ويتزوج! نزوة بالطبع.. غبي.. وأنت؟ هل تحب زوجتك؟

فاجأته بسؤالها: بالطبع.

أمسك بمعصمها الهش وهو يستمع إلى نبضها وأكمل: زوجتي ملاك.

إبتسمت السيدة: إذن لا تحبها.

نظر لها في دهشة: معذرة؟

- إذا كانت ملاكاً.. لا تستطيع أن تحبها.. كيف تحب ملاكاً؟

لا يفهم قصد السيدة.. تنهدت وأكملت: تحتاج إلى امرأة.. امرأة وليس ملاكاً.

لم يجب.. إقترب منها.. ضغط على عينيها وهو ينظر لها: هل يوجد ألَم هنا في عينيك؟

- ألم أقل لك يا علاء.. الألم في عقلي.. من الغباء.. أكره الغباء.

كتب شيئاً آخر.. وقال في رقة: كل سنة وأنت طيبة.. أراك بعد العيد إن شاء الله.

- لو كان لي عُمْر طبعاً. أحياناً أتمنى أن أموت حتى أرحم نفسي من حماقات البشر.. ولكن إذا مت لن أرى وجهك الجميل مثلاً ولن آكل مانجو.. هل يوجد مانجو في الجنة؟ حتى المانجو الآن مغشوشة.. كالرجال!

قام.. فقالت في سخرية: سلّم لي على الملاك يا دكتور.

***

سمع صوت أم كلثوم تغني "ليلة العيد" ضم ولديه في فخر وزوجته.. هو سعيد.

لا يشعر بالنشوة ولكنه سعيد.

ويتمنى أن يأتي عليه العيد القادم وهو هكذا.. ناجح.. ومستقر.

ربما يحتاج إلى مال أكثر ولكن رانيا مقتصدة وعاقلة...

إرتدى جلبابه الأبيض. أمسك بطفليه وخرج معهما لصلاة العيد.

رانيا أمسكت بعلب الكعك.. عليها أن توزع الكعك على أمها وحماتها.. وأختها.. ومحمد أخو علاء والجيران وزملاء علاء في المستشفى.. يا إلهي.. الكثير.. نظرت إلى ساعتها.. قبل أن يأتي زوجها يجب أن تجهز كل شيء.. الإفطار.. والعلب المختلفة.. ويجب أن ترتدي ثوبها الجديد وتصلي.. ستصلي أولاً...

إنتهت من صلاتها.. وضعت يدها على وجهها وسجدت وهي تدعو الله: والنبي يا رب.. اجعله يحبني.. لقد.. تعذبت وأنا أرى الشوق في عينيه لهذه المرأة .. إجعله يكرهها ويحبني...

رن جرس الهاتف.. دكتور سعيد رياض يريد زوجها.. تتمنى ألا يكون هناك عمل اليوم.. تريد زوجها اليوم.. فقط أول يوم في العيد.. فقط أول يوم...

عندما عاد زوجها.. وضعت الكعك على المنضدة وقالت: الإفطار جاهز يا علاء.. ودكتور سعيد يريدك في شيء هام.

أمسك بالتليفون وهو يأكل كعكة ويجلس على طرف الكرسي وطلب الرقم.

رد الدكتور سعيد.

- تريدني الآن؟ لماذا؟ حسناً.. بعد نصف ساعة.

قالت زوجته في قلق: هل هناك شئ مهم؟

- لا أدري.. سنرى.. أنا آسف يا رانيا لن أتأخر إن شاء الله.

ظهر عليها الحزن ولم تنطق.

خرج زوجها متجهاً إلى عميد الكلية والشوارع مزدحمة.. نفخ في غيظ.. كان يريد البقاء مع أسرته اليوم.. يوم واحد!

وصل بيت العميد.. فتحت الخادمة.. دخل فجاء العميد وهو يرتدي "روب" أزرق ويبدو متجهماً.. أشار له بالجلوس.. جلس والقلق بدأ يظهر عليه.

ثم سأله إذا كان يريد أن يشرب شيئاً.. عرض عليه بعض الكعك ولكنه رفض.

- هل هناك مشكلة يا دكتور؟

قال الرجل متجهماً: دكتور علاء.. إنك من أكفأ الأطباء ومن أفضل مدرسي كلية الطب.. هناك مشكلة صغيرة.. عليَّ أن أتخذ بعض الإجراءات.. كيف أبدأ؟

- مشكلة؟

- نعم.. كان عليَّ أن أتكلم معك أمس في الجامعة.. ولكن لم أكن أريد هذا.. كنت أريد أن أتكلم معك بطريقة غير رسمية أولاً.

- ولم يكن في الإمكان تأجيل هذا الموضوع إلى ما بعد العيد؟

- إنه موضوع هام.. وعلينا أن نناقشه بسرعة.

- ما هو؟

- بعض الاتهامات.

إبتسم علاء في جفاء: بالطبع من عبد الكريم وغيره.

هز العميد رأسه بالنفي.: من احدى الطالبات.. موضوع "عبيط" ويتكرر أحياناً.. لا تقلق ولكن.. علي أن أتعامل معه بجدية كعميد...

قال في دهشة: موضوع ماذا؟

- تحرّش جنسي.

قال وكأنه يسمع نكتة سخيفة: ماذا؟!

- الطالبة عايدة عبد النبي تتهمك بأنك تحرشت بها في أكثر من مرة وهددتها بأنك ستقضي على مستقبلها.. وهناك شهود يا علاء.. الموضوع ليس سهلاً كما تتصور.

- ومن هي عايدة هذه؟ في أي سنة؟

- في السنة التمهيدي.. قاصر.. ما تقوله خطيراً لا أريد أن أخوض فيه الآن.

- ثم ماذا؟ لا أفهم ما قيمة هذا؟ هذا موضوع تافه.. لا أعرف هذه الطالبة.. لدي آلاف من الطلاب وربما بعضهم يحبني وبعضهم يكرهني.. أكُلما زعم أحد الطلاب شيئاً..

قاطعه العميد: علاء.. هناك شهود على ذلك.. دكاترة.. لن أستطيع أن أقول لك من هم الآن.. البنت تدعي أشياء خطيرة.

قال في حزم: وما شأني بما تدعيه؟ أعرف أن البعض يريد تدميري هذا أسلوب رخيص وقذر.

قال الرجل: نعم أتفق معك.. ولكنها ذهبت إلى النيابة والطبيب الشرعي وهناك شهود.. هذه قضية يا علاء.. وحتى يُفصَل فيها.. عليّ أن أخبرك أنك موقوف عن العمل!

هل هذا حلم.. بل كابوس.

قال في هدوء: أنا لا أفهم شيئاً.. هذه مفاجأة غريبة.

- أنا آسف يا علاء.. الحقيقة ستظهر إن شاء الله.. وحتـــى تظهــر.. عليَّ أن أوقفك عن العمل .. وبعد العيــد.. أعتقــد ستتســمع كــل شـــيء بالتفصيل.

قام علاء.. لا لن يفقد أعصابه...خرج.. ترك سيارته وســـار وســـار على شارع الكورنيش الهواء يصطدم بوجهه...

ماذا جرى؟ عليه أن يفكر في هدوء.. هو الآن موقوف عن العمل!

من هي عايدة؟ وماذا تريد؟

سار وسار كعادته عندما يشــعر باليــأس.. ســـار مـــن جلــيم إلـــى الإبراهيمية.. وهو يفكر.. ماذا يخبر زوجته؟ ماذا يخبر أهله؟ مـــا حجــم هذا الموضوع؟ ما هذا الظلم؟

فليفكر في هدوء.. ولكن ليس الآن.. الآن يريد العودة إلى بيته.

- علاء.. ماذا جرى؟

لا.. زوجها لا يبدو متجهماً هكذا كثيراً.. هناك شئ خطير.. لم ينطق.. دخل الحجرة.. تمدد على السرير.

همست من جديد: علاء.. هل أنت بخير؟ هل سنذهب إلى طنط فاطمة الآن؟ علاء؟

قال في هدوء: رانيا.. أريـــد أن أنـــام بعـــض الوقـــت.. أرجــوك.. إغلقي الباب وأتركيني ساعة.

أغلقت الباب والخوف بدأ يتسرب إلى قلبها

***

همست حماتها في فضول: ما المشكلة يا رانيا.. هل هناك مشكلة بينك وبين زوجك؟

قالت مسرعة: أبداً يا طنط.

القلق على زوجها يحزنها.. نظرت له صامتاً.. عيناه لا تتحركان.. شعرت برغبة جامحة أن تلقي بنفسها بين ذراعيه.. لا.. الفتاة الرقيقة لا تفعل هذا.. الفتاة المحترمة تنتظر حتى يأخذها زوجها بين ذراعيه.. لا.. الفتاة المحترمة لا تأخذ خطوة المبادرة!

عندما يريد زوجها أن يخبرها عما يعكّر صفوه، سيفعل.. لن تضغط عليه.. هو لا يحب هذا.. ولكنها قلقة.

قلقة وخائفة.. هل حبه لچيهان يحزنه كل هذا الحزن؟

لا...

منذ ذهب لمقابلة العميد وهو هكذا.. يومان الآن.. يحاول التصرف بطبيعية.. زار أهلها وأهله.. ذهب إلى الملاهي مع أحمد ورامي.. ولكنه حزين.. ترى الحزن.. ولا تدري ماذا تفعل.. ستنتظر حتى يخبرها.. ستنتظر.. الصبر جميل...

أمسكت بحقيبتها وسارت وراء زوجها في استسلام.

نظرت إلى دِبلتها.. إلى الخاتم الكبير الذي اشتراه لها في العيد الماضي.. كم هو كريم! تعرف.. هذا العيد هو قلق بشأن المال.. ربما هو قلق فقط.

سارت وراءه.. وهي تنظر له وكأنه غريب عنها.. كل هذا الشموخ.. كل هذه القوة!

لا ينطق بما يحزنه كل هذا الحزن...

لا.. لم تشعر يوماً بقربها منه وكأنهما تقابلا في حفل تنكري.. كل منهما كان يرتدي قناعاً.. ولا أحد يرى الآخر.. طوال هذه السنوات وهما يرتديان القناع...لا.. تخشى الاقتراب منه.. تخشى هذا.. كيف تقترب هي البنت الفقيرة المسكينة من الملك المتوج.. وهل تستطيع؟

لم تقترب منه يوماً...لم تجرؤ.. وهو... ماذا عنه هو؟

لا تدري ربما لم يقترب منها.. ربما لا يستطيع.. فكلما اقترب تنحني له في احترام وتبتعد في أدب.

لماذا اختارها هي؟

همست في ترجٍ وهي تجلس بجانبه في السيارة وهو يمسك بعجلة القيادة: علاء؟

لم ينظر لها قال في هدوء: نعم يا رانيا.

عضّت على شفتيها فلتفكر أولاً.. ماذا تريد أن تقول.. لا.. لو تكلمت بتلقائية ستغضبه.. لا تريد هذا.

هو حزين.. فلتتركه حتى يخبرها بما يحزنه.. لن تضغط عليه.. السيدة الثرثارة التي تضغط على زوجها لا يوجد عندها أمل في أن يحبها.

هي عندها أمل.

هي تعرف أن هناك أملاً.

أحياناً تيأس.. مثل الآن مثلاً.

قال من جديد: نعم يا رانيا.

قالت في يأس: كل سنة وأنت طيب.

ابتسم ابتسامة مفتعلة وقال: وأنت طيبة يا حبيبتي.

***

خرج في الصباح.. إلى المستشفى إذن...

لم تدر إلى أين سيذهب.. دائماً يخبرها بخط سيره في الصباح "سأذهب إلى الجامعة ثم إلى المستشفى أو العيادة ثم لزيارات منزلية".

اليوم لم ينطق.

أحاط رأسه بيديه في يأس وكلمات وكيل النيابة تـدوي فـي أذنـه.. "متهم بالتحرش الجنسي بالطالبة عايدة عبد النبي.. وهي قاصر.. طالبة في السنة التمهيدي.. هناك شهود.. الممرضة عفاف الخولي، والـدكتور عبـد الكريم الفتيح والعامل خليل العلوي".

كانت تتردد على مكتبك في الجامعة.. رسـبت فـي العـام الماضـي وهددتها بأنها سترسب من جديد.. حاولت الاعتـداء عليهـا صـرخت.. كان الباب موارباً.. ورآك خليـل.. تكـررت الواقعـة ثـلاث مـرات.. كلهم شهدوا بنفس الشيء وتقرير الطب الشرعي يؤكد هذا.. هـذه قضـية وسأفرج عنك بكفالة خمسة آلاف جنيه لحين البت في القضية.. طبعاً كمـا تعلم لا يمكنك ممارسة عملك حتى البت في القضية".

خمسة آلاف جنيه هي كل ما يملك في البنك.

طلب من أخيه احضارها في هدوء.

جلس الدكتور علاء وراء القضبان يستنشق رائحة البول القديم الكريهة في النيابة ينتظر قدوم أخيه.

لم يشعر بتلك المهانة في حياته أبداً من قبل.

ولم يشعر بذلك الخذي في حياته أبداً من قبل.

عندما تثبت المحكمة براءته سيرحل من هنا.

لن يبقى لحظة في مكان كهذا! مكان يسود فيه الظلم لا العدل!

أغمض عينيه حتى لا يرى ما يدور حوله.

هو أستاذ الجامعة بين القضبان.. لأن أحد الفاسقين يريد هذا.

مستقبله انتهى.

حتى لو خرج براءة.. ماذا سيحدث لسمعته؟ لكرامته؟

وهل يستحق هذا؟

هذا اختبار من الله.

فليصبر. إيمانه كبير والله معه...لا لن ينهار...

جاء أخوه...ظهر على محمد الارتباك.. دفع المبلغ.

سارا معاً.. في صمت.. لم ينطق علاء ولا كلمة.

ركبا معاً سيارة أخيه.. الأسى يظهر على وجه محمد..

مدد علاء رأسه على المقعد وكأنه يلقي بعذاب يمزقه على المقعد.. عذاب داخل رأسه.

قال محمد وهو يتزعم اللامبالاة: لا يوجد مشكلة.. بلاغ كيدي.. الكل يعرف أنه بلاغ كيدي.. لا يؤثر على سمعتك.

لم ينطق.

- من يهمك؟ زوجتك.. لن تصدق هذا عليك أنا أعرفها.. ووالداك يحبانك أكثر من كل شيء.. والحق لابد سيظهر.

هز رأسه بالإيجاب وقال في هدوء: نعم لابد سيظهر.

- أتريد العودة إلى البيت؟

هز رأسه بالايجاب.

- هل عرفت رانيا القصة.. أتريدني أن أخبرها أنا؟

هز رأسه بالنفي.

- هل ستخبرها.. ستعرف يا علاء.. عليك أن تخبر أهلك.. هؤلاء الذين دبروا هذا لن يصمتوا.. إنهم يريدون تدميرك وتدمير سمعتك.

- أنا سأخبرها.

سار في هدوء.. تسلق سلم بيته.. دق على جرس الباب.. فتحت زوجته.. نظرت لعينيه.. ماذا به؟

لماذا ذهب اللون عن وجهه؟ لماذا كل هذا الأسى في عينيه؟

قبضت يدها حتى لا تعانقه.. لا لن تعانقه.. ربما لا يريد هذا!

همس: أين الأطفال؟

- عند أمي يا علاء.. كنت أنتظر قدومك حتى نذهب ونأخذهم...

- لا.. لن نأخذهم.. علينا أن نتكلم يا رانيا.

خرجت منها رجفة.

لماذا لا تلقي بنفسها بين ذراعيه الآن وتصيح.. لا أريد أن أسمع!

دخل حجرة النوم.. إستلقى على المقعد.. ودخلت هي وراءه.. كانت واقفة.. تنتظر ما سيقول...

كرامته!

أين كرامته؟ يريدون كرامته! يريدون إذلاله.. لن يستسلم!

قالت مسرعة: علاء...هل .. هل.. فعلت شيئاً يضايقك.. أنا آســفة.. هذه الأيام..

قاطعها في هدوء: لم تفعلي شيئاً يا رانيا.. هناك مشكلة.. مشكلة كبيرة!

قالت في فزع: في العمل؟

- نعم في العمل.. أنا موقوف عن العمل يا رانيا!

شهقت في فزع.. ثم جلست على الأرض بجانب المقعــد.. ووضــعت يدها على يده وهمست: لا يهمك شيئاً يــا عــلاء.. عــلاء.. لا تحــزن.. لا تحزن أرجوك.

كان ينظر إلى لا شيء.. لا يأبه بكلماتها ولا بيدها على يده.. قال فــي مرارة وهو لم يزل يتزعم الهدوء: طالبة اتهمتني بالتحرش الجنسي.

شهقت من جديد.

بدأت ترتبك.. فلتفكر قبل أن تتصرف.. لا فلتفكر.. والدتها دائماً تقول أن عليها أن تفكر قبل أن تتصرف.

لا تدري...

قامت.. وضعت يدها على كتفه وقالت والمرارة تحرق حلقها: لماذا؟

قال في لامبالاة: لا أدري لماذا.. ربما لأنها رسبت.. ربما لأن أســتاذاً آخر هددها.. ربما لأن الكثير يريد تحطيمي.. لا أدري.

قالت دون تفكير.. فعقلها لم يعد يفكر...: لماذا؟

قال في شيء من العصبية: لا أدري يا رانيا..

ربتت على كتفه.

لا.. عقلها لم يعد يفكر.. وكأن عقلها سَبَت ممتليء بالبطاطس.. وفجأة يأتي أحد الأطفال ويسكب السَبَت! فتتساقط البطاطس بتلقائية ودون توقف!

رددت من جديد: لماذا؟

نظر لها في دهشة.

فأكملت والبطاطس كلها تتساقط!: لماذا يا علاء؟ لماذا؟ لماذا فعلت هذا؟

فتح عينيه.. نظر لها.. أطال نظره لها.. ثم قال في فزع: فعلت ماذا؟

قالت في تلقائية: تحرشت بها.. لماذا تحرشت بها يا علاء؟ ألم تفكـــر في أولادك؟ فيّ أنا.. في أمك.. في.. .

قاطعها في ذهول: أتصدقين أني فعلت هذا؟ أنت؟

إبتعدت عنه.. وكأنها تخشاه.

والبطاطس تتساقط من السبت دون توقف!

ثم قالت متلعثمة: فعلت هذا.. وأكثر.. فعلت الكثير.. رأيتك.. رأيتــك وأنت تتوق لها.. تريدها...كنت تريدها هي.. أليس كذلك؟.. لـــم تحبنـــي يوماً...أناني.. فقط أناني.. تزوجتني لتتسلق كتفي وتصل إلى ما تريـــد.. لم تفكر فيّ.. .أبداً.. أبداً...

قام من مقعده..

هل هو يحلم؟ هل هذه زوجته؟ لماذا تقول هذا الهراء؟ ربما الصدمة.. نعم عليه أن يهدئها.. هو قوي.. لا لن يفقد سيطرته على نفسه.

قال وهو ينتزع الهدوء من جديـــد: رانيـــا...إهـــدئي.. أنـــا آســـف.. لم أكن أقصد أن أفزعك هكذا.. أهدئي يا حبيبتي..

صاحت فجأة: أنا لست حبيبتك! لا تقل حبيبتي! إنك كاذب! لماذا تكذب؟ لم تحبني ولو يوماً.. لم تحبني..

أخذت أنفاسها تتلاحق...

لم ينطق.. نظر لها في فزع ولم ينطق..

فأكملت: حاولت.. كم .. حاولت.. كل يوم.. لا.. لم أشعر بالسكينة لحظة! كنت أتقطع وأنا أراك.. تتوق إليها.. أرى العذاب في عينيك.. تظن نفسك شريفاً.. بطلاً.. لا.. أنا لا أريدك أن تحبني.. لا أريدك أن تحبني

قال في شيء من العصبية: اهدئي يا رانيا.. كل ما تقولينه هراء! لا أريد أن أسمعه الآن! يكفي ما أتحمله!

صرخت في وجهه وهي تحملق في عينيه: لن أهدأ.. يا دكتور.. لن أهدأ.. يا مثالي! إنك أناني.. فقط رجل أناني.. مغرور وطموح لا أكثر!

قال في صرامة: لا تفعلي هذا يا رانيا!

ثم أمسك بالباب ليخرج.. فأمسكت بذراعه وقالت في قوة: علاء.. أنا لا أحبك.. أتسمع.. .لا أحبك...ولا أريدك أن تحبني...ولا أريد..

دفع بيدها وهو يخرج من باب الغرفة ويتجه إلى باب الشقة.

صاحت من جديد في غلّ غريب: علاء.. إسمعني...أنا أحب رجلاً آخر...

توقف فجأة قبل أن يصل إلى باب الشقة.

أدار وجهه لها.. نظر لها نظرة لم ترها من قبل أبداً...

أهذا غضب في عينيه.. غضب... أم نار..؟

اقترب منها في قوة وهدوء وكأنه مجرم محنك على وشك القيام بجريمة قتل وهي ترى النار في عينيه...

وبداخلها راحة غريبة...

رفع يده.. وهوي بها على وجهها.

صفعها.. صفعة أوقعتها على الأرض!

شعرت بلهيب يحرق خدها.

وراحة غريبة.. راحة لم تشعر بها من قبل!

نظرت له والدموع متحجرة في عينيها وقالت: علاء.. المثالي!

أمسك بذراعها ورفعها من على الأرض وكأنه لم يسمع ما قالت ثم قال في قسوة وهو لم يزل يمسك بذراعها: لماذا تقولين هذا؟ لماذا قلت هذا؟

قالت وهي تبتسم في شيء من الهستيرية: نعم.. أحب رجلاً آخر.. هل تتألم؟ عندما أقول هذا هل تتألم؟ هل تتألم؟ أريدك أن تتألم! كما سهرت أنا ليالي أتألم!

أمسك بمعصمها في قوة وصاح: لماذا تقولين هذا؟

قالت في عصبية ونشوة: محمود.. كنت أحب محمود.. وأنت.. أنت طلبت منه أن يسافر.. كنت تعرف أليس كذلك؟ كنت تعرف أنني أحبه.. وأنه يحبني.. أردتني لنفسك.. أردت أن تشتري عبدة بمواصفات معينة.. تعذبت معك طوال خمس سنوات وأنا أتعذب!

ترك معصمها في ازدراء ثم قال في احتقار: تحبين محمود؟ فلتذهبي له إذن.. لا أريدك.. لم أعد أريدك.. إذهبي إليه.. هيا...

تحجرت الدموع في عينيها من جديد.. هوت إلى الأرض وقالت بصوت تريده أن يبدو هادئاً: أنت تحب جيهان.. إذهب إليها.. أنت إذهب إليها...

جلس على ركبتيه أمامها على الأرض أمسك بكتفها وقال في لهجة لـــم تسمعها من قبل.. توعد.. قسوة: هناك شيء واحد أندم عليه في حيـــاتي.. هو أني لم أذهب إليها.. لم آخذها.. ولم أمارس الحب معها وسأندم عليـــه طالما حييت!

قام في ازدراء.. وخرج ولطم الباب وراءه...

سمعت صوت الباب يخترق أذنيها.

رحل إذن!

زوجها رحل!

أخذت تشهق في صمت.. أصابعه لم تزل تترك علامات على وجنتها.. على معصمها.. على ذراعها.. على كتفها.

ضربها.

علاء الزوج المثالي.. ضربها!

ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

وكأن الطفل بدأ يلملم البطاطس من جديد!

ما قالته لا يمكن العودة فيه.

ودورها.. دور الزوجة المطيعة الطيبة.. انتهى.. هل نزعت القنـــاع.. أم سلخته من على وجهها بالدم؟ لا تدري!

***

الفصل الثالث

فتحت رشا فمها في فزع.. بينما أمها تمسح عرقها في توتر..

ثم قالت رشا: ماذا تقولين يا رانيا؟ علاء ضربك؟

هزّت رأسها بالإيجاب.

فصاحت والدتها: ضربك كيف؟ أليس لك أهل؟ "ياما تحت الساهي دواهي"

قالت رانيا في بطء والبركان ينفجر بداخلها: ضربني.. الدكتور علاء المثالي ضربني.. صفعني.. أتري يا رشا .. زوجك أفضل.. لا يصفعك.. هل يضربك زوجك يا رشا؟ زوجي أنا ضربني.. ليس عليك أن تحسديني.. من اليوم سأحسدك أنا...

همست رشا في خجل: ربنا معاك يا رانيا.. ماذا ستفعلين الآن؟

قالت الأم مسرعة: لن تترك بيتها.. عودي إلى بيتك.. ربما.. ربما يراجع نفسه...

قالت رانيا في ثقة: لن يراجع نفسه.. لن يعود.

قالت الأم في تهكّم: ولماذا هذه الثقة؟ ماذا فعلت؟ قولي لي لماذا ضربك؟ ماذا فعلت؟ الرجل لا تخرج منه العيبة.. لن يفعل هذا من فراغ.. ماذا فعلت يا بنت؟

قالت في فخر وهي تقوم: قلت له أني أحب رجلاً آخر.

لطمت الأم على خدها: يالهوي! هي ده تربيتي.. يالهوي!!

شهقت رشا في فزع من جديد: رانيا.. هل تتعاطين شيئاً؟ ماذا قلت لزوجك؟

قالت في حزم: قلت أني لا أحبه.. لا أريد نقاشاً معي.. قلت أشياء فظيعة.. قلت ما شعرت به في ذلك الوقت.. ولست نادمة.. لا أريد زوجي.. لم أعد أريده.

صرخت الأم من جديد وهي تمسك بكتفها: رانيا.. هل جننت؟ تحبين من؟ لوعرف والدك سيقتلك.. تحبين من؟

همست في يأس: أحب...

قالت والدتها: من...إنطقي؟

- أحب.. أحب علاء...

قالت رشا مسرعة: يا مثبت العقل والدين يا رب! أنت تتعاطين شيئاً! تحبين علاء.. وتقولين له إنك تحبين رجلاً آخر.. هل تظنين أنه سيسامحك يوماً! إنه رجل يا رانيا.. لن يسامحك! سينتهي بك الأمر مطلقة مع ولدين أهذا ما تريدين؟

قالت في لامبالاة: نعم.. هذا ما أريد.. أشعر براحة غريبة.. لن أمثل.. من اليوم لن أمثل.. سآكل ما أريد.. أرتدي ما أريد.. أصرخ.. أبكي.. أنام.. أترك شعري دون تصفيف أسبوعاً.. أترك حاجبيّ بلا تسوية عامين.. أفعل ما أريد!

همست رشا لأمها: أظنها قد وجُنّت!

***

عادت إلى بيتها.. مع أطفالهـا.. يسـألون علـى والـدهم.. سـافر.. ربما يأتي اليوم.. ربما غداً...

كان يوماً طويلاً.. نظرت إلى ساعتها.. الثانية صباحاً!

صمم والداها على عودتها إلى بيتها.. فربما يعود.. وعنـدما يعـود.. يجب أن يجد زوجته في انتظاره..

ربما يعود.

لن يعود أبداً.

زوجها رحل للأبد.

ماذا فعلت؟ يا إلهي ماذا فعلت؟

تساقطت الدموع من عينيها فجأة.

مصيبة.. زوجها في مصيبة.. وبدلاً من أن تقف بجانبه.. ماذا فعلت؟

وكأنها أمسكت بسكين مسنون.. قطعت رأسها في هـدوء.. سـرعة.. وحرفية!

لماذا؟

لا تدري.

شيء واحد تتمناه.. فليلقي بنفسه بين ذراعيها هي.. جيهان!

فليشعر بالسكينة معها.. هو يريدها.. فليزني إذن!

لا لقد تركها.. الآن ربما يتزوج جيهان.. لمـاذا لا يتـزوج جيهـان؟ لقد حررته.. حررته من قيد يؤلمه.

وهي .. لا تتمنى غيره.

ولكنها حررته وتحررت.. يوما ما سيشكرها على أنها حررته.

أغمضت عينيها من جديد.. وانهمرت الدموع من عينيها.

امسكت بخدها.. سامحته.. لم تغضب منه.

سامحته.. على أنه صفعها.. ليته صفعها ألف مرة...

ولكنها أبداً لن تسامحه على نظرة الأسى التي كانت في عينيه.. نظرة الشوق لجيهان.. لن تسامحه!

***

أمسك برأسه بين يديه.. داخل جامع القائد ابراهيم في الأزاريطة.. يحب هذا المكان.. يحب هذا الجامع.. رائحة البخور والمسك تريحه...

لم يتحرك ولم ينبث بكلمة.. بقى ساكناً!

خسر كل شيء.. كل شيء في لحظة.. مركزه.. سمعته.. كرامته.. زوجته.. كل شيء.

جلس القرفصاء.. نظر إلى يده.. كيف صفعها؟ كيف فعل هذا؟ هل هذا حلم.. هل يحلم؟

رانيا تحب رجلاً آخر؟

رانيا!

رانيا تفعل هذا به في أزمته!

وهل عرفها يوماً؟

جيهان.. لا لن يفكر الآن.. لم يعد يطيق زوجته.. لا يريد أن يراها أبداً.. طالما في صدره قلب ينبض!

سار في هدوء.. سار وسار.. على شاطيء البحر.. هواء البحر يلفح وجنتيه.. يوقظه.. ويميته.. ورائحة السمك الحي والسمك العفن الآتية من البحر تختلط في أنفه...

سار وسار..

كل شيء.. فقد كل شيء.

الأمواج تصطدم بالصخر في عنف.. ترى من يتألم من هذا الاصطدام؟ الصخر أم الأمواج؟ ترى أيفتر الألم مع الوقت.. هل تتصرف الأمواج الآن بطريقة ميكانيكية وكأن من واجبها أن تصطدم بالصخر.. وكلاهما لا يشعر بالألم..

منذ عاد إلى مصر لم يشعر سوى بالأسى والألم واليأس.

كان يحيا واهماً.. كل ما حوله كان كالسحاب الهش.. أبيض ولكن في الحقيقة بلا لون!

سيعود إلى بريطانيا ويأخذ معه ولديه.. وينسى كل شيء.. فلتتزوج زوجته من حب عمرها إذن .. لا يبالي!

ماذا لو لم يثبت براءته؟

لا.. لن يفكر في هذا الآن!.. يريد الهدوء.. يحتاج إلى الهدوء...

عبر شارع البحر بسرعة.. دخل إلى محطة ترام سيدي جابر.. يعرف أين يجلس أخوه.. في قهوة على الترام في الإبراهيمية.. مشى ومشى...

توقف عند بقالة صغيرة.. إشترى عيدان كبريت وسجائر...

جلس على المقهى في انتظار أخيه.

امسك بسيجارة.. أشعلها.. لأول مرة في حياته يدخن.. فليحرق السيجارة أفضل من أن يحرق نفسه!

أصوات الباعة المتجولين تثير أعصابه.. ورائحة الشواء المختلطة برائحة الحمير تثير أعصابه أيضاً! لا يدري.. أيكره هذا المكان؟

نعم .. لا يطيقه!

يكره رائحة التراب.. والشواء والفول والحمير والجوافة الطازجة والمانجو المتعفن..

يكره صياح الحمير والناس والنساء!

يكره .. صرخات النشوة من الأطفال..

يكره شعوره أن الناس تعيش لأنها بالكاد تموت.

دائماً كلهم على وشك الموت.. ويستمرون في الحياة.

في كل لحظة هم على وشك الموت.

يسمع صوت فرامل سيارة توقفت في آخر لحظة قبل أن تصطدم بالعربة النقل.. وكأن شيئاً لم يكن.. العربتان سارتا في طريقهما.

طفل يصرخ.. السيارة تتوقف في اللحظة الأخيرة.. الطفل كان على وشك أن يدهس بعجلات السيارة...

صاح السائق: فتّح يا عمى.. حتودينا في داهية.

سار الطفل في طريقه وسار السائق في طريقه بكل بساطة وكأن شيئاً لم يكن.

إبتسم لنفسه في أسى.

وماذا يكره أيضاً ؟

يكره الشعور بأن الانقاذ يأتي في اللحظة الأخيرة...

الطفل على وشك الموت.. لم يمت..

الناس على شفا النار ولا يحترقون!

الحادث على وشك الوقوع.. والسيارات تتوقف في اللحظة الأخيرة..

يحب الألم الذي لا ينتهي بالنشوة.. تعلّم في بريطانيا أن الألم ألم، والنشوة نشوة...

لا يجتمعان!

يكره امتزاج الصرخات والزغاريد في المستشفى!

فليحزنوا على حالهم هؤلاء المصريين!

لماذا هذه الفرحة في عيون الأطفال؟

نظر له أخوه في دهشة: علاء...أتدخن؟ منذ متى؟

قال في لامبالاة: منذ اليوم.

- تغيرت.

- جداً.

- ماذا تفعل هنا في الثانية صباحاً؟ تهرب من زوجتك مثلي؟

- إجلس.

- وزوجتك؟

- تركتها.

نظر له محمد في فزع: تركتها بسبب هذا الموضوع؟

- بسبب موضوعات كثيرة.

- كنت أظنك أسعد رجل في العالم.. زوجتك ملاك!

- كنت أظن هذا أيضاً.

- خلاف بسيط يعني!

- صفعتها!

شهق أخوه: علاء! هل أنت بكامل قواك العقلية؟ صفعت رانيا؟ إن صوتها لا يعلو أبداً.. لم أر في رقتها وأخلاقها أحداً.

إبتسم في تهكّم: نعم صوتها لا يعلو.

- عُد إلى بيتك يا أخي.. لا تخسر كل شيء.

- لم يعد عندي بيت.. بيتي ليس هنا...

صمت لحظات ثم أكمل: ألا ينام الناس هنا! الأطفال في الشارع في الثانية صباحاً!

أخذ نفساً من سيجارته ثم أكمل: هل أخبرت والديك؟

- نعم.. أخبرتهم.. أمك تبكي منذ تركتها.. ألن تخبرني عن سبب مشاجرتك مع زوجتك؟

لم ينطق علاء.. حملق فيه محمد ثم قال مسرعاً: إنك مختلف.. علاء.. إنك مختلف.. هل صفعتها حقاً؟ تبدو.. تبدو مثلي.. لا تبدو كأخي الكبير الذي لا يخطيء أبداً.. ماذا جرى بينكم؟

- لا شيء.. لم يجر شيء.. إنتهى كل شيء بيننا.

إبتسم محمد في مكر: تحب أخرى؟

- نعم أحب أخرى.. هي تصدق أني تحرشت بتلك الفتاة!

- مَن التي تصدق؟ الأخرى؟

- رانيا.

- هل تمزح معي؟ رانيا لا تصدق عليك شيئاً! بالنسبة لرانيا أنت الفارس الذي لا يخطيء أبداً.. كلنا نرى هذا...

- هذا يوم الاكتشافات!

- تحبها؟

قال في ثقة: لا.

- النساء هكذا خلقوا من ضلع أعوج.. النساء.. هن مصيبتنا يا أخي.. لولاهن لاستقامت الأرض.. النساء.. آه من النساء! أين ستبيت إذن؟ ستعود إلى بيت والديك؟ يجب أن تعود إلى هناك!

هزّ رأسه بالإيجاب: لم يعد عندي مكان آخر.

•••

كيف فعل هذا؟ كيف صفع زوجته؟

هو الرجل المتحضر فعل هذا!

كان يوماً طويلاً.

شعر بالمهانة في الصباح.. طوال الصباح..

ثم شعر بالمهانة منها هي أيضاً.

ترى.. أيقسو الإنسان لو شعر بالمهانة؟

الآن لا يصدق أنه فعل هذا.. ولا يعرف كيف نطقت تلك الكلمات...

كانت تعرف.. طوال الوقت كانت تعرف مشاعره تجاه چيهان...

وكيف أخطأ؟ وما ذنبه لو كانت هذه مشاعره؟

وما ذنبها لو كانت تحب آخر؟

هل حقاً تحب رجلاً آخر؟

هل يمكنه العيش معها من جديد؟ بعد كل هذه الجروح!

لا...

لن يفكر فيها الآن.. شعر بالذنب بل بالخجل من نفسه!

لو فعل هذا رجل أمامه كان سيتهمه أنه سوقي.. متوحش.. جاهل..

وهو..

هو فقط يريد أن يفكر بهدوء.. يهدأ أولاً...ماذا سيفعل الآن؟ من هي عفاف؟ ومن هو خليل؟

ماذا بيده أن يفعل؟

يتمنى لو ترك بيت أبويه.. ولا يجد مأوى آخر.. وليس لديه أي مال.. ماذا يفعل الآن؟

أخذت والدته تتكلم وتتكلم: زوجتك الأصيلة.. تتركك في هذه الظروف! لماذا؟ أتصدق عليك هذا؟ سأتكلم مع والدها.. كيف.. كيف...

قاطعها: لا أفكر في هذا الموضوع الآن.

– ناقصة تربية.. ربيها يا دكتور.. ربيها!

قال في حزم: لقد انتهت علاقتي برانيا.

– كيف انتهت والأولاد؟

لم يجب.. يفتقد ولديه.. يحتاجهما...

يريد أن يراهما.

إنتظر أسفل العمارة.. طلب من البواب إحضارهما.. قبلهما وعانقهما.. سار معهمـــا خطوات.. أكل معهما الحلوى.. ثم أعادهما إلى والدتهمـــا.. لا يريد أن يراها.. أبداً.

يشعر بالخجل من نفسه.. بالغيظ منها.. لا يريد أن يراها.

وهي رانيا.. والدتها أيضاً تتكلم وتتكلم.. وهي لا تسمع شـيئاً.. فـــي النهاية قالت والدتها: رانيا أرجوك.. إستمعي لي الآن.. كلمة واحدة!

نظرت لها في فتور.. فقالت الأم: أظنك فقدت صـــوابك.. هــل حقــاً تصدقين أن زوجك فعل هذا؟ تحرش بفتاة؟

قالت في جفاء: لا.

– ولكنك لست بجانبه.. عندما تنتهي محنته.. لن يسامحك لأنك تركتيه الآن.. إنسي كل شيء.. وفقط إبقي بجانبه ثم حاسبيه على ما فعــل بعــد ذلك!

قالت مسرعة: لا يحتاجني.. لا تفهمين.. لا يحتــاجني.. لا يحبنـــي.. يحب أخرى.. يحتاجها هي.

نظرت رشا لها لثوان ثم فتحت فمها وكأنها على وشك أن تبوح بســـر خطير وهمست: إغويه يا رانيا.

نظرت لها رانيا في ذهول: ماذا تقولين؟ أغوي من؟

قالت وكأنها اكتشفت كيف تفك رموز حجر رشيد: زوجــك.. إغــوي زوجك.. لا أعرف.. ربما يحب أخرى.. ولكنك أنت كنت تعيشـــين معـــه طوال تلك السنوات.. يمكنك أن تغويه!

- لا تفهمين.. لقد حاولت.. طوال تلك السنوات وأنا أحاول أن أجعلـه يحبني.. الرجل لا يكتشف أنه يحب زوجته سوى في الأفلام.. تمنيـت أن أصاب بمرض خطير لأشعر به بجانبي.. ليكتشف أنه يحبني ولم أصـب بشيء.. تمنيت أن أستيقظ يوما وأجده يحبني.. لم يحدث هذا..

قالت أختها وصبرها بدأ ينفد: يا عبيطة.. أنا لا أتكلـم عـن الحـب.. إغويه.. إذهبي إليه بدون الأولاد واغلقي البـاب واغويـه.. بعـد ذلـك لن يستطيع أن يتركك.. وإنسي موضوع الحب هذا.. لا بأس لـيس عليـه أن يحبك!

قالت في يأس: يا رشا.. ألا ترى كيف أبدو؟ كيف أغويه؟ أنا؟ بشـكلي هذا؟

- هذه مشكلتك.. عدم الثقة.. هي مشكلتك أنت.. وليست مشكلته هو!

قامت والدتها وقالت في لهجة حادة: رانيا.. اليوم ستذهبين لزوجـك.. وتفعلين ما قالته أختك.

هزت رأسها بالنفي.

قالت الأم من جديد: لقد مر أسبوعان يا رانيا.. سينساك.. سيفعل.

- فلينسني.. إنه لم يتذكرني أصلاً.. لم أعد أريد المحاولة..

زاد إلحاحهم.. سئمت مناقشتهم...

شيء بداخلها يفتقد زوجها.. وشيء يكرهه...

تود لو رأته.. تحتاج أن تراه.. ولكنها لا تريده أبداً.

لا تريده.

صاحت أمها أخيراً: الله يخرب بيت الحب وسنينه.. ما يحبك ولا ميحبكيش.. المهم تربي عيالك وسط أبوهم.. مبتفكريش فيهم خالص! طيب.. ولو بيحب واحدة تانية.. إنت بتساعديها ليه؟

- سئمت الحروب!

قالت رشا في مكر: تريديه أن يتزوجها؟.. ينجب منها الأبناء وينسى أولادك؟ هذا ما تريدين؟

أطالت نظرها لأختها ثم قالت في استسلام: سأقابله ولكني لا أريده لم اعد أريده.

سارت في هدوء بجانب أختها من سيدي جابر إلى الإبراهيمية.. نظرت إلى الشارع الضيق القديم الذي يسكن فيه حماها.. وزوجها الآن.. لم تزل الزينة معلقة في الشارع.. زينة رمضان.. الهلال والفانوس والنجوم الورقية.. وكأنها تذكرها بأيام كان هو معها.. كانت تمثيلية مملة كل السنوات الماضية كانت تمثيلية مملة!

كيف تضمن أن زوجها هناك في بيت والديه؟ لا تريد رؤية والدته! لا ليس الآن!

وصلت مع أختها.. سألت البواب.. قال الرجل وهو يجلس على الدكة القديمة ويرتدي جلبابه الأبيض: خرج.

قالت رشا: إلى أين؟

- راح يجيب عيش من الفرن.. بيحب يشتري كل حاجة بنفسه الدكتور.. أمال أنا شغلتي إيه!

نظرت إلى آخر الشارع حيث المخبز الصغير.. سارت من جديد مع اختها.. رائحة الخبز الطازج تمتزج برائحة البسطرمة القادمة من البقالة المجاورة...

المخبز الصغير.. لا يتسع سوى لشخصين.. هناك صوانٍ من الكعك والبقسماط ملقاه على أرض المخبز وأرض الشارع وكأن صاحب المخبز يعرف المارة ويثق بهم! أو ربما لا يهتم بشيء.. لا أحد يدري

نظرت أمامها.. التقت عيناهم.. كان يمسك بخمسة أرغفة.. خبز بلدي ساخن...

نظرت للخبز.. ثم له... هو..

بقي ساكناً..

قالت رشا مسرعة: كيف حالك يا علاء؟ رانيا تريد التحدث معك...

بدى عليه البرود والجفاء...

بدأ في السير فسارت بجانبه ثم قال: أين؟

قالت أختها مسرعة: في حجرتك...

نظر لها في حيرة فقالت في ارتباك: أقصد في البيت.

نظر لها في دهشة.

فقالت رانيا: إلى أين تريد الذهاب؟

قال في برود: سأذهب لأتمشى على الشاطيء.. تريدين أن تأتي معي؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي تبلع ريقها.. غمزت لها أختها بعينيها ثم تركتهما..

سارت بجانبه في هدوء.. كان يسير بسرعة ولم ينطق...

سارت بجانبه وهي تلهث ثم قالت: هل يمكنك أن تسير ببطء؟

قال في جفاء: لا.

نظرت له.. تحبه.. عيناه.. ما أجمل عينيه.. لا لن تفكر في هذا الآن.. هي لا تريده.. لقد حررت نفسها منه للأبد.

كم مر من الوقت؟ نصف ساعة تقريباً وهو يسير في صمت وهي بجانبه.

حتى وصلا إلى منطقة السلسلة.. نظر علاء إلى التمثال الذي يحيره منذ سنوات.. ...

نظرت هي الأخرى للتمثال. لاحت بذاكرتها صورة الصبا.. هذا التمثال الذي كانت تراه هي الأخرى كل يوم وهي في طريقها إلى الجامعة: السيدة قوية البنية والثور الذي يغمرها بقوته ومشاعره الوفيرة وفرة الأمواج. ليتها تستطيع الآن أن تغمره كما يغمر الثور أوروبا.. ليتها تستطيع ولكنها لا تملك قوة الثور.. ليتها تملك كل تلك القوة.

نزل خطوات.. إلى الرمال.. جلس على الرمال ونظر إلى البحر في صمت.. سمع الأمواج.. صوتها يشبه صوت "طشّة الملوخية" التي تطبخها أمه كل يوم جمعة!

جلست بجانبه في بطء ثم قالت: هل تعرف لماذا جئت اليوم؟

نظر لها في شيء من الجفاء وشيء من الخجل ثم قال: أنا آسف يا رانيا.. لا أدري كيف فعلت هذا...

لن تمثل.. لا.. ستكون نفسها.. لقد أقسمت ألا تمثل مرة أخرى.. لن تكون الزوجة المطيعة.. هي لا تريده.

لم تنطق.

وضع الخبز بجانبه.

جلس كل منهما بجانب الآخر.. كتفاهما على وشك أن يتماسا ولكنهمـــا لم يتماسا.

قال في هدوء: لماذا جئت إذن؟

قالت في صراحة وتلقائية وهي تنظر إلى الأمواج: أنا لا أصدق أنــك فعلت هذا.. لا أصدق أنك تحرشت بتلك الفتاة.. ولكن.. أظن.. أن حياتنـــا معا أصبحت مستحيلة.

هز رأسه بالإيجاب.

ساد الصمت برهة.. كلاهما ينظر إلى الأمواج ثم قالت: علاء..

نظر لها.. إخترق عينيها ثم قال: نعم.

قالت: هل يمكنك أن..

صمتت.

- نعم يا رانيا ماذا تريدين؟

- هل يمكنك أ ن تعطيني رغيف خبز.. يبدو لذيذا وأنا جوعانة جداً...

نظر لها في دهشة وأمسك بالرغيف وأعطاه لها.

فبدأت تأكل في صمت.. إبتسم في تهكّم وقال: أول مرة أراك تـــأكلين يا رانيا.. تأكلين وتستمتعين بالأكل.

قالت في هدوء: نعم.. أستمتع.. هذه هي المشكلة.. لم أستمتع بشيء.. ولم تستمتع بشيء...كنت دائماً أخاف أن أغضبك وكنت تخاف عليّ وعلى مشاعري من كل شيء.. لا بأس فلنستمتع الآن.. هل ستتزوج من چيهان؟

نظر لها في دهشة من جديد.

هل هذه زوجته؟

ما هذا الذي تقوله؟ تتكلم بثقة وكأنها لا تعرفه...

لم يجب.

ولم تسأل من جديد.

ساد الصمت مرة أخرى.

حتى سمع صوتاً متحشرجاً من ورائه: إتق الله يا أخ.. إتق الله في الولايا.. واترك الفتاة لحالها.. ماذا تفعل معها على الرمال في ظلام الليل؟

قبض علاء يده حتى لا يضرب الرجل! هذا ما يحتاجه الآن!

حاول السيطرة على أعصابه وهو يقول: فتاة!.. يا أخ.. نحن لا نفعل شيئاً على الرمال.. أتعرف لماذا؟ لأنها زوجتي.. وكانت زوجتي منذ خمس سنوات ونحن الآن على وشك الطلاق.. أتريد أن تبدي رأيك في هذا الموضوع؟

قال الرجل في غضب: كيف لي أن أعرف أنها زوجتك؟ لا يأتي رجل بزوجته ليجلسا على الرمال ليلاً.

صاح علاء: ليس لك أن تعرف.. لماذا لا تهتم بما يخصك فقط؟ دع الخلق للخالق!

سار الرجل وهو يسب ويلعن!

نفخ علاء في غيظ.

خرجت منها ضحكة.. أهذه ضحكة؟

نظر لها في فزع.. ما المضحك الآن؟ ما المضحك في حياتهم؟

قالت بعد برهة: لم تجب على سؤالي.. هل ستتزوج من چيهان بعد أن تطلقني؟

قال في ضيق: وهل ستتزوجين أنت من محمود إذن؟ هل هذا ما تتمنيه.. كنت تحبينه؟ طوال هذه السنوات وأنت تحبينه؟ لماذا؟

قالت في تلقائية: بالطبع لم أكن أحبه.. هل صدقت ما قلته؟.. لم أحب غيرك.. في حياتي كلها لم أحب غيرك.

هل جُنَّت زوجته؟ ماذا حلَّ بها؟ وكأنها امرأة أخرى...

أكملت: كنت أحبك.. الآن لا.. الآن أحب نفسي.. أعيش لنفسي.. قل لي يا علاء.. ما رأيك في البحر؟

إخترق عينيها من جديد وقال: أحبه.

– وأنا أيضاً .. أنا أحب البحر.. في الشتاء.. في الليل.. أحب غموضه وعمقه.. أحب شموخه وقوته.. و..

نظرت له.. أغمضت عينيها.. شعرت برغبة جامحة أن تقبل شفتيه.. نظرت له من جديد.. لأنفه المستقيم.. لملامحه القوية...

قامت في عصبية.. فلتتحكم في نفسها! ثم قالت: علاء.. ماذا سيحدث لو.. لوغطست في البحر الآن؟ ترى.. ماذا بداخل هذا البحر العميق الغامق؟

قال وهو يقوم: لا أدري.. لم أستحم ليلاً من قبل.

جرت متجهة إلى البحر.. خلعت حذاءها ودخلت المياه.. إقتحمتها.. وهي تقول: هناك مرة أولى لكل شيء!

جرى وراءها.. أمسك بها والمياه قد بللت نصف رجليها وقال: أجننت يا رانيا؟

قاومته وهي تقول: نعم .. جننت.. أنــا أحــب الشــيكولاتة.. وأكــره البسبوسة.. كم صينية بسبوسة كان عليّ أن أصنعها من أجلك؟ أنا لا أحب البسبوسة ولا أحب الطهي..

قال في تلقائية: وأنا أيضاً لا أحب البسبوسة.. لماذا كنت تصنعيها لي؟ لم أكن أحبها لا أحبها.. ولم أكن أريد أن أغضبك...

أكملت وكأنها لا تسمعه: فقط أحب البحر.. والسمك والشيكولاتة!

أمسك بذراعها وهو يشدها إلى الشاطيء.. والبلل بدأ يمــلأ بنطلونــه وبنطلونها.. قاومته وقاومته.. حتى وقعت في المياه.. جلست على الرمال وشعرت بالأمواج تدفع بها إلى الشاطيء...

أمسك بها من جديد.. شدها، رفعها وقال: كفي عــن هــذا الهــراء.. تعالي أوصلك إلى البيت.

قالت مسرعة وهي تسير بجانبه: لم أعد أريدك يــا عــلاء.. أتفهــم.. لم أعد أحبك.. تزوج من چيهان لا يوجد مشكلة عندي.. إرتوي فقد ازداد بك العطش.. تريدها أليس كذلك؟

قال في ضيق: أريد سمعتي التي راحت هباءاً.. لقد انتهيت يا رانيا!

قالت في جفاء وهي تجري بجانبه: عندما تعود لك سمعتك تزوجهــا.. طلّقني وتزوجها...

لم ينطق.

أخذت تلتف حول نفسها على الرصيف.. وقالت: ألا ترى؟ أنا انسانة أخرى.. كنت تريد الزوجة المطيعة الهادئة.. أنا لست مطيعة ولست هادئة.. و.. وجريئة.. جريئة جداً!!

قالتها وهي تتراجع إلى الوراء.. وفي لحظات.. أدارت وجهها وجرت وسط شارع البحر السريع.. إخترقت الشارع..

توقفت السيارات فجأة.. سمع صوت الفرامل.. سمع صوت اصطدام سيارة بالسيارة التي أمامها...

كانت على وشك الموت.. كانت ميتة بالتأكيد! رآها أمامه.. تموت بالكاد تموت!

السائقون بدأوا يلعنونها: الله يخرب بيتك يا مجنونة.. عايزة تموتي موتي بعيد عنا..

كل المارة انتهزوا الفرصة وعبروا الشارع وهو معهم...

نظر لها في فزع.. هل مازالت حية؟

أمسك بيدها بلا إرادية وقال: رانيا.. إهدئي.. ماذا حلّ بك؟ هل فقدت عقلك.. تعالي معي سأوصلك إلى البيت ثم تهدأي.. اهدئي يا رانيا...

قالت في لهجة حادة: أنا هادئة.. هادئة جداً...علاء.. لو مُت الآن كنت ستكتشف أنك تحبني؟ كنت ستحبني.. أترى.. المشكلة أن ما تراه في الأفلام وتقرأ عنه في الكتب ليس صحيحاً.. الزوج لا يكتشف أنه يحب زوجته في النهاية.. والزوجة لا تتغير.. لن أتغير.. أنا هكذا كما أنا..

قال في جفاء: لا شيء يستحق قتل نفسك من أجله!

شبك أصابعه بأصابعها وكأنه يخاف أن تهرب منه.. وساد الصمت.. ضغطت على أصابعه بأصابعها.. دون تفكير.. يأس غريب سيطر على قلبها.. سارا معاً في صمت...

حتى توقفت فجأة عند دكان بقالة قائلة: الآن أريد شيكولاتة.. هل معك أي مال.

نظر لها من جديد.. وضع يده في جيبه.. أخرج خمسين قرشاً: هذا كل ما معي يا رانيا.

أخذت تبحث في جيبها.. أخرجت جنيها.. دخلت الدكان.. إشترت الشيكولاتة.. وهو لم يزل ينظر لها...

قطعت قطعة.. مدت يدها بها له قائلة: تريد قطعة؟

هز رأسه بالنفي.. فوضعت كل الشيكولاتة في فمها.. وأمسكت بيده من جديد.. في تلقائية.

سارا في صمت حتى بيت والديها في سيدي جابر.. قال في صرامة: مع السلامة يا رانيا.. إهدئي.. من أجل الأولاد عليك أن تهدئي.

- مع السلامة يا علاء.

تسلقت درجات السلم بسرعة.. دقت على الباب.. قالت والدتها: لماذا عدت؟

- وأين كنت تريديني أن أذهب؟

قالت رشا مسرعة: رانيا لم تغويه؟

- لا لم أغويه.. لم أستطع.. أرجوكم لتركوني.. أتركوني لحالي...

قالت أمها في حماس: غداً.. حاولي غداً..

جلست على الأريكة بجانب والدها كان يمسك بالمصحف ويقرأ آيــات من القرآن ..

أغمضت عينيها شعرت بوغز في صدرها. لا لن تحزن لقــد ســئمت اليأس والحزن. كيف لا يحبها؟ كيف؟ وهل تستطيع العيش بدونــه؟ وهــل يمكنها يومــاً أن تلقي بنفسهــا في ذراع رجل آخر؟ تعرف الإجــابــة.. لا تستطيع وكأنها عاشت طوال حياتها في انتظاره وعندما جاء كانت لــه ولا تستطيع أن تكون لغيره.. تكوينها.. تركيبتها كل شيء بها عقلها مبرمج على حب رجل واحد.. رحلت بذاكرتها إلى الماضي.. إلى ليلة زواجهــا.. كيف ضمها إلى ذراعيه في حنان وطمأنها أنه معها.. وأن شيئاً لن يمســها طالما هو معها.. الخائن.. كان يكذب عليها.. لم يكن يحبها..

يا إلهي.. لا لن تفكر هكذا.. لن تعذب نفسها أكثر من ذلك. ستفقد عقلها لو بقيت تفكر فيه.. نظرت لوالدها يبدو هادئاً قويــاً شــفتاه تتحــرك فــي ميكانيكية. يهمس بصوت بالكاد يسمع آيات قرآنية.. همست: بابا إدعِ لــي يا بابا..

- بماذا يا رانيا؟

نظرت له في حيرة.. لا تدري بماذا لم تعد تدري بماذا.

- رانيا.. أنا لا أريد أن أتكلم مع زوجك.. أنتظر لأرى ماذا ســيفعل.. هل تريدينني أن أتكلم معه؟

هزت رأسها بالنفي في يأس.

***

وضع رأسه على السرير القديم.. كما رحل كما عاد.. لا شيء.. لم يعد عنده أي شيء..

في حجرته القديمة.. هنا.. مستلقي على السرير.

هل يحب چيهان؟

نعم.. ولكنه لا يفكر في الزواج بها.. لا ليس لديه أي رغبة في هذا لا يستطيع أن يفكر في هذا الآن!

ورانيا؟

جُنّت!.. المسكينة.. فقدت عقلها.. جرحته وجرحها.. حطموا حاجز الاحترام واخترقوه.. لا يدري لو كان قادراً على العودة إليها.. وهي لم تحاول.. لم يرها منذ ذلك اليوم...

المحامي يقول أن موقفه ضعيف في القضية.. يحتاج مساعدة كل من يريد أن يشهد معه.

هو بريء.. ماذا لو حُكم عليه بالسجن؟

هذا هراء.. سينتهي هذا الأمر.. سينتهي قريباً...

سمع "دق" على الباب.. فتحت والدته.. نادته.. من الذي يريده؟

هي...

چيهان!

كان يعرف أنها ستأتي.. ستأتي ولا يريدها أن تراه وهو في هذه الحالة.. ولكن لا يوجد اختيار..

قام.. اتجه إلى باب الغرفة.. خرج.. رآها واقفة بجانب الباب.. صافحها في برود..

جلس على مقعد.. جلست أمامه وقالت: لقــد عرفــت كــل شـــيء.. هذا ظلم.. سأشهد أن هذا ظلم.. علاء...أين زوجتك؟ لماذا أنت هنا؟

صمتت فجأة.. نظرت له.. التقت أعينهم.. ثــم قالــت: هــل تصـــدق هذا الادعاء؟ رانيا تصدق هذا الادعاء؟

قال في قوة: لا هي لا تصدق يا چيهان.

- إذن لماذا أنت هنا؟

لم ينطق.

- أتحتاج شيئاً؟

- شكرا يا چيهان.

صافحته وعيناها مليئة بالحب.. واتجهت إلى الباب.. ثم توقفت وقالت: علاء...

- نعم يا چيهان.

قالت في شيء من الخجل: أريد أن.. هناك شيء أريد...

- نعم يا چيهان

- تعرف في آخر مرة رأيتك فيها.. في لندن.. علاء.. أرجو ألا تكون قد فقدت احترامك لي.. فرأيك مهم عندي و...

صمتت.

قال وهو ينظر إلى عينيها في رقة: لا يمكن أن أفقــد احترامـــي لـــك يا چيهان...أبداً..

أمسكت بالباب.. فتحته وخرجت...

كانت والدته في المطبخ.. تراقب المشهد من بعيد.. قالت عندما رحلت چيهان: أنظر لها.. أنظر لعينيها.. أنظر للهفة في عينيها.. الفرق كبير بينها وبين زوجتك.. لم تسأل عنك ولو مرة واحدة..

لم يتكلم.

إرتدى ملابسه وذهب إلى القهوة التي اعتادها وهو ينظر حوله.. للمحلات.. أناس.. أناس في كل مكان...

ترى بماذا يشعرون؟

لا لن ينكسر.

هو قوي.. طوال حياته.

بقى على القهوة مع أخيه: علاء.. أنا آسف لن أستطيع أن أعرض عليك اي مال.

- أعرف.

- ماذا ستفعل؟

- ربما أبيع الشقة.. ولكن.. يجب أن أتكلم مع رانيا.. علي أن أتكلم معها أولاً...

***

صاحت والدتها: إنه يريدك ليتكلم معك. إذهبي إليه ولا تعودي! ابق معه يا رانيا.. لا تعودي اليوم. هل فهمت؟

قالت رشا مسرعة: إفعلي ما تريده أمك ولو مرة. إبقِ حتى الصباح.

هزّت رأسها بالإيجاب وقادت سيارتها إلى زوجها.

تسلقت السلّم وقلبها يخفق بشدة.. إفتقدته.. كم افتقدته.. عليها أن تسيطر على نفسها.. لا يمكن أن يبدو عليها الارتباك هكذا...

فتحت حماتها الباب.. نظرت لها في ازدراء: أهلاً يا زوجـــة ابنـــي.. كيف حالك وحال الأولاد.. تفضلي.

لا.. حماتها لا يجب أن ترى توترها.. بلعت ريقها في ارتباك وخجل.. لم تكن تدري.. هل تذهب له في حجرته أم تنتظره؟

- علاء في حجرته يقرأ بعض الأوراق. هل تريدين أن تشربي شـــيئاً يا رانيا؟

ابتسمت وهي تدق على أرجلها بأصـــابعها المرتجفـــة فـــي عصـــبية: شكراً يا طنط.. سأدخل له.

لم تنظر لحماتها اتجهت إلى الحجرة.. بماذا تشعر؟ بشوق له .. ربما.. كره له.. ربما.

فتحت باب الحجرة في بطء.. نظر لها وهو يتوقـــع مجيئهـــا.. إبتســـم في برود وقال: أهلاً يا رانيا.. هناك موضوع هام أريد أن أتكلم معك فيه.

شعرت بخوف غريب.. ماذا يريد؟ أيريد أن يتركها.. هل يريد الزواج من چيهان إذن؟ يا إلهي ماذا فعلت؟ هي السبب.. غباؤها و.. ولكن لا يهم لم تعد تهتم بهذا.. فليفعل ما يشاء.. لم تعد تريد شيئاً!

جلست على طرف السرير فأغلق الباب وقـــال: أحتـــاج إلـــى المـــال يا رانيا.. أحتاج أن أدفع إلى المحامي.. وفكرت في بيع شقتنا.. لا أملـــك شيئاً آخر.. اعرف أن..

قاطعته في غضب: لا أوافق.

نظر لها في دهشة: تفضلين أن أدخل السجن ظلماً؟

قالت وهي تقوم: لا.. أفضل أن تأخذ المال الـــذي أعطيتـــه لأخيـــك. لا تظن أني سأوافق.. هذه شقتي وشقة أولادي؟

نظر لها وكأنه يراها لأول مرة.. فأكملت بنفس القوة: هل أنا البلهاء في هذه العائلة؟ لماذا لا يتصرف أخوك أو زوجته.. إنها تستمتع بمالي أنا الآن.. تسافر لشرم الشيخ في الشتاء والساحل الشمالي في الصيف بمالي ومال أولادي. لن تبيع شقتي!

تنفس نفساً طويلاً وكأنه يحاول التحكم في أعصابه ثم قال في هدوء وهو يفتح الباب: حسناً.. لن أبيعها إذا كانت هذه رغبتك.. تفضلي يا رانيا...شكراً على الزيارة.

نظرت له برهة.. لوجهه الشاحب.. للحية التي بدأت تظلل وجنتيه وذقنه.. شعرت بشيء من الخجل من نفسها.. وبالغيظ.. ثم قالت: هل يمكنني أن أتكلم معك؟

لم ينطق.. ترك الباب ودخل.. جلس على طرف السرير فقامت.. أغلقت الباب وهمست في شيء من الرقة.. شيء من الكره: متى ستتزوج من جيهان؟ هي غنية.. يمكنها أن تساعدك.

نفخ في ملل: هل عندك موضوع آخر تتكلمين فيه؟

جلست بجانبه.. إقتربت وهي تقول: أنا لا أحبك يا علاء. لم أعد أحبك.

تجاهل كلماتها.

وضعت يدها على وجنته وهمست في رقة: ولكنك متعب.. تبدو متعباً.

أغمض عينيه ولم ينطق.. لا يفهم هذه المرأة ولا يعرف ماذا تريد.. هناك شئ يدور في عقلها.. ماذا تريد منه الآن؟ لماذا لم ترحل؟

إقتربت أكثر.

عليها أن تستغل ضعفه الآن.. الآن.. ثم ماذا؟ لا تدري.

تريده الآن.

قبّلت وجنته في رقة وهمست: والدتي طلبت مني أن أغويــك اليــوم. هل يمكنني أن أغويك اليوم يا علاء.. اليوم فقط؟

فتح عينيه في دهشة.. فقدت عقلها.. لابد أنهــا فقــدت عقلهــا! قــال في حزم: لا.. لا يمكنك هذا.. لماذا تغويني؟

ثقة غريبة سيطرت عليها.. منذ متي وهي تتخــذ خطــوة المبــادرة ؟ منذ متى وهي بهذه القوة.. وهذا الجحود.. وكل هذه القسوة!

قربت شفتيها من شفتيه.. أحاطت عنقه بذراعيها وهمست من جديــد: لا أعرف كيف تغوي المرأة الرجل.. ولكني أعرف أنك تحتاج لــذراعي.. هل تحتاجني يا علاء؟

قال في صرامة: لا.. لا أحتاجك.

لماذا لم يدفع بها بعيداً؟ لا يدري.. ربما هي لخصت مشاعره بجملتها.. وربما لا.. لا يدري لماذا لم يدفع بها.. عقله لم يعد يعمل!

إقتربت منه أكثر.. قبلت وجهه قبلات متناثرة.. ورقيقة وأحاطت كتفه ولم تنطق.

بلع ريقه في ألم.. ماذا يريد؟ أن يمزق هــذه المــرأة الآن.. تــرفض أن تساعده.. بعد كل ما كان بينهما ترفض أن تساعده! يكرهها.. يكرههــا كما لم يكره شيئاً من قبل.. ويريدها الآن.. لا يدري لماذا.. لم يشعر بنفسه وهو يحيط خصرها.. يضغط عليه في قوة حتى همست هي فــي فراســة غريبة لم يكن يتوقعها: تكرهني؟

لم يجب.

تنهدت وهمست: تكرهني وتظن أنني أنانية ومجنونة.. تظن أنني لا أعبأ بمصيرك.. أنت على صواب يا علاء.

وفجأة قبل أن ينطق.

قبلت فمه.. كما لم تقبله من قبل.. بقوة.. بثقة.. وعنف غريب.. وكأنها تكره كرهاً كبيراً...

فعل نفس الشيء.

يريدها.. لماذا يقاوم.. لماذا يفكر؟ هي زوجته.. أليست زوجته؟ فليصهرها بين أضلعه...

وما أن ابتعدت عنه حتى تسارعت أنفاسها وقلبها على مسمع منه وقالت: عندما كنت الطبيب الكبير كنت أخافك.. والآن....

همس في تهكم وجفاء وأنفاسه هو الآخر تتسارع: الآن ماذا؟ الآن تريديني أن أطفيء النور؟

قالت في ثقة وهي تهز رأسها بالنفي: لا.. فقط أريدك أنت.

•••

مصمصت والدته شفتيها وهي تنظر إلى ساعة الحائط وقالت لوالده: كُهن نسوان! ماذا تريد منه؟.. ماذا تفعل طوال هذا الوقت؟

- إنها زوجته يا فاطمة.

- أصيلة.. زوجته الأصيلة.. تركته وهو يحتاجها.

ثم أكملت في عصبية: إنها تستغل ابنك يا عبد الله.. هل أطرق على الباب؟

- أجننت يا امرأة.؟ أتريديه أن يتركنا؟

– لقد امتصت دمه يا عبد الله.. هدايا.. وسيارة.. هي مثل سامية بل أسوأ.. حظ أولادي سيىء.. سيىء جداً.

قال في عدم اكتراث: اذهبي لتنامي يا فاطمة.

دخلت حجرتها والقلق يسيطر عليها.. تخاف عليه من كل شيء خاصة الآن.. هو كل أحلامها التي لم تتحقق.. تراه ينهار أمامها.. يتحطم.. أغمضت عينيها .. لم تنم.. كانت تفكر في حال ولديها.. عندما أنهت دراستها.. وحصلت على الدبلوم.. كان حلمها أن تعمل وتعمل حتى تصعد بأولادها إلى أعلى وأعلى.. عملت هي وزوجها في البنك الأهلي. عملا بلا توقف.. حتي يأتي اليوم الذي ترى فيه ولديها أحسن حالاً منها.. كان علاء هدية السماء لها.. عاقلاً هادئاً وكريماً.. كان معجزة.. سافر وعاد.. عاد منتصراً.. عاد طبيباً ناجحاً.. ثم ماذا.. مستقبله ضاع..

تساقطت الدموع من عينيها.. إبنها الأصغر كالخاتم في إصبع زوجته الجاحدة، المرض أضعفه وأضعفها هي أمه.. وابنها الأكبر علاء.. حلم حياتها.. يتحطم.. ماذا تريد منه زوجته؟ ألا تحمد الله على حظها السعيد وهل كانت تحلم برجل كعلاء؟ لا يوجد رجل كعلاء!

ربما.. ربما تريد العودة إليه.. لا عليه أن يعلمها أولاً ما لم تتعلمه في بيت أبيها.. كيف تقف بجانب زوجها..

سمعت صوت زوجها: نامي يا فاطمة.

***

فتح عينيه.. نظر حوله.. هنا في غرفته القديمة.. هو هنا.

نظر بجانبه.. هي.. رانيا.. زوجته.. تنام بجانبه.. يدها على صدره.

أزاح يدها في بطء.. ثم قام.

ماذا فعل أمس؟ ماذا يفعل الضعف بالانسان؟

كان وحيداً.. ضعيفاً.

وهي.. يكرهها!

وأمس؟

"غلطة".

أمس كانت مختلفة.. زوجته كانت مختلفة.. وكأنها تنتقم منه من أجل ما فعله بها.. وماذا فعل؟ إنه لم يفعل شيئاً

مرة أخرى امتزج الألم بالنشوة.

يكرهها.. وماذا؟

أمس.. كان يود أن يمزقها.. كيف غوته؟ رانيا البريئة تغويه؟!

وچيهان .. الجميلة.. المرأة التي تمناها وأحبها.. لم تستطع أن تغويه!

رانيا زوجته؟

ضربته في مقتل!

إختارت المكان والزمان.

نظر لها من جديد.. كانت تعرف مشاعره تجاه چيهان! هي ليست بالسذاجة التي كانت تتزعمها!

الآن وهي نائمة.. تبدو بريئة من جديد..

ماذا تريد منه زوجته بالضبط؟

وضع يده على شعرها في رقة.. .يكرهها!

فتحت عينيها.. إبتسمت في شيء من الدلال والخجل .. طوقت عنقه وهمست: علاء!

حملق في عينيها ولم يجب.

تركته في ارتباك وخجل .. ثم نظرت حولها وقالت في حيرة: أمس.. علاء.. أمس..

نظر لها وكأنه ينتظر أن يسمع ما تريد أن تقول.

قالت من جديد وأفكارها كلها هربت: أمس..

- ماذا تريدين مني يا رانيا؟

قالت مسرعة: لا شيء.. لا أريد شيئاً.. أحياناً أريد أن أراك وأحياناً....

قال في فضول وشيء من التهكم: احكي لي عن علاقتك بمحمود إذن.. كنت تحبينه؟

بلعت ريقها في خجل.. لا لن تخجل.. هي لا تريده.. ولا تأبه بما يقول!

قالت: نعم في فترة المراهقة كنت أحبه في صمت..

قال وهو يمدد جسده على السرير: وتركك وسافر؟

أجابت في غضب: لم يتركني.. لم يعرف أصلاً أني أحبه..

قال في سخرية: هذا ما تظنيه أنت!

- ماذا تقصد؟

- كنت أظن أنه هو يحبك وأنت لا تحبينه.. أعذريني يا رانيا.. لم أكن أقصد تحطيم مستقبلك بزواجك مني.. لم أكن أقصد حرمانك من فتى أحلامك.

لم تجب.. تكرهه.. تكره تهكمه.

أكمل في هدوء: نعم.. أخبرني أنه يفكر في الزواج منك.. نعم كنت أريدك لنفسي.. .نعم شجعته على السفر.. ما المشكلة؟ لو كان يحبك حقاً كان سيرفض أن يتركك ويسافر.. لم يكن يحبك حباً حقيقياً.

قالت في جفاء: وأنت؟ كنت ميتاً في غرامي؟

نظر لعينيها لثوان.. فكادت تلقي بنفسها بين ذراعيه ولكنها لم تفعل.

قال في هدوء: لا.. كنت معجباً بك.. بهدوئك وعقلك.. وكل الأشياء التي لم تكن أنت!.. كنت أحب رانيا وهمية.. كم أرثي لحالك يا رانيا.. مثّلت طوال هذه السنوات!

إنتفضت من على السرير وقالت مسرعة: آه! تكذب من جديد.. لم تكن تحب رانيا .. أنت تحب جيهان.. لا بأس لن نتكلم في هذا الآن.. فلنتكلم في موضوع آخر.. علاء..

وضع يده على جبهته وكأنه يعاني من صداع.. نظرت له في ألم ثم قالت: هل ستساعدك جيهان؟ لو طلبت منها أن تساعدك ستساعدك.. لا لن أستطيع أن أساعدك لو ساعدتك ستعود إليَّ لأنك تشعر بالامتنان وأنا لا أحب هذا الشعور أكره الامتنان.

صاح في وجهها فجأة: تساعدني؟ جيهان؟ لماذا؟ لا يوجد شيء بيني وبينها لتساعدني.. ألا تفهمين؟ لا يوجد شيء.. إذهبي الآن.. عودي..

عودي إلى بيتك.. لا أريد أن أراك الآن يا رانيا.. هيا! فالغباء هـو سـمة العصر هنا.. أكره الغباء.. هيا .. إذهبي!

نظرت له في غضب ثم قالت متوعدة: تسبني.. علاء.. لن أتحمل منك أكثر من هذا.. أولاً تصفعني ثم تسبني.. علاء!

تنفس الصعداء ولم يقل شيئاً.

لن تبكي.. لن تبكي أمامه.. نظرت له من جديد.. قامت فـي هـدوء.. أمسكت بحقيبتها وفتحت الباب وخرجت.. ووالدتـه جالسـة.. تتفحصـها في فضول.. وغيظ.

أغمض عينيه من جديد.. ماذا حل بزوجته؟ لم يعد يعرفها.. من هيَ؟

ولم يعد يعرف نفسه.. ماذا يريد؟ لماذا كل هذا الضعف أمس؟

كان يحتاج لذراعيها لا أكثر!

مصمصت أمه شفتيها من جديد ودخلت على ابنها.. كان يضع بعـض الكتب على مكتبه القديم.. قالت في جفاء: علاء.

– نعم يا ماما.

– ماذا كانت تفعل رانيا عندك؟ أليس لديها حياء؟ تبيت في حجرتك!

نظر لها في ذهول: إنها زوجتي.

صمتت.. لا تدري ماذا تقول..لا تريد أن تغضبه.. ولكنها لـن تبقـى صامتة وهي ترى من يستغل ابنها.

– علاء إذا كنت تنوي العودة إليـها فعليـك أن تـأخذ حـذرك هذه المرة، فـ..

قاطعها: لا أنوي العودة إليها.

نظرت له في حيرة.. ماذا يدور بينه وبين زوجته بالضبط؟

لم تعد تفهم شيئاً.

قالت في حيرة: ولكن أمس.. ظننت أن..

قاطعها وهو يبتسم ويربت على كتفها: إنك حتى لم تصبحي على صباح الخير .. هيا لنفطر معاً

فهمت..

إبنها لم يتغير.. لا يريد أن يخبرها عما يدور بخلده.

حسنا.. هي فقط تريده سعيداً.. ولكنها لن تسامح رانيا أبداً.

جلس مع والديه على المائدة.. متجهماً.. ووالدته يقطعها القلق.. قالت فجأة: علاء.. سأتكلم مع محمد اليوم.. أنت تحتاج المال الذي اقترضه منك بسبب مرضه.

قال مسرعاً: لا .. هو لا يملك شيئاً.. زوجته تملك كل شيء.. لا أريد أن أسبب له مشاكل.

قالت في قوة: هذه مشكلته هو يا علاء وليست مشكلتك أنت..

لم ينطق.. كان يشعر بخنقة غريبة.. لا توجد خصوصية.. المشكلة أنه اعتاد الخصوصية.. يعشق والديه.. ولكنه أحياناً يحتاج إلى دقائق مع نفسه.. دون أن يتدخل أحد في سياق أفكاره!

***

قالت أمها في فرح: هذه ابنتي.. لماذا عدت اليوم؟ لماذا لم تذهبي إلى بيتك مع زوجك؟

قالت في لامبالاة: طردني.. لا يحبني .. يكرهني..

- لماذا؟

- لا أدري.

- لا تتركيه! يا رانيا.. اطرقي الحديد وهو ساخن.

- ليس لدي مطرقة!

- ماذا تقولين؟.. هذه الأيام تقولين كلمات غريبة.

دخلت حجرتها.. أحقا لن تساعده.. حبيبها لن تساعده.. نظرة الألم في عينيه لا تترك مخيلتها.. ماذا تريد؟

تمددت على سريرها القديم.. إحتضنت نفسها في مرارة.. لن تبكي.. لماذا تبكي؟ كم حاولت في الماضي.. الآن ستستسلم لقدرها.. الحب ليس بيد الإنسان.. أكان أمس آخر يوم لها معه إذن؟

كل هذا الاشتياق أمس، كل تلك اللهفة، كانت تشعر أنها المرة الأخيرة.

أغمضت عينيها.. سمعت صوت ولديها.. ينادونها.. عليها أن تسيطر على نفسها.. لا لن تفقد عقلها من أجل رجل.. لقد تحررت وحررته..

شعرت بشيء من الندم.. لماذا قالت ما قالت؟ لماذا لم ترض بحياتها معه.. كان نعم الزوج والأب!

هذا هو الإنسان .. طمّاع!

لا لم تكن تستطيع.. هي لا تستطيع.. كل هذا المجهود كل هذه المحاولات.. والتفكير العميق.. كل هذا الفشل.. وكل هذا الاشتياق لأخرى.. لم تعد تستطيع.

أمسكت بالتليفون.. ربما لا يريد أن يتكلم معها.. سيرفض.. كرامتها.. أين كرامتها.. فقط تحتاج أن تساعده.. تريد أن تساعده.

طلبت الرقم.. أجابت حماتها.. طلبت أن تتكلم معه.. سمعت صـــوته.. وشعرت بوغز في صدرها من جديد.. قالت: علاء.. هــل عنــدك وقــت لتقابلني غداً.. في نفس مكاننا على البحر؟

- لماذا؟

- كنت.. كنت أريد أن أتكلم معك..

وبلعت ريقها تثاقلت أنفاسها.. وكأنه شعر بها قال: حسنا يـــا رانيـــا.. سأراك غداً في السادسة مساءً.

دفنت رأسها في الوسادة.. هو ليس فقط زوجها.. هــو كــل شـــيء.. هو من تعلمت على يده كيف تحيا.. هو الحلم الذي أصبح حقيقة.. هو من كان يقف دائماً شامخاً.. وهي تنظر لنفسها.. كم كانت ضئيلة بالنسبة لـــه.. لم تعرف رجلاً غيره.. لم يضمها أبداً رجل غيره..أول قبلة.. أول لمسة.. كانت منه.. كيف يفعل بها هذا؟ لن تسامحه.. لا لم تعد تريـــد التمثيـــل.. ولن ترتدي أي قناع!

***

صاحت فاطمة في وجه محمد: إسمع يا ولد.. ما تقوله لي الآن هراء.. لن نحاول كلنا إسعاد سامية حتى ترضى عنك ولا تغضب منك.. محمــــد.. "طز في سامية..وطز فيك".. أخوك يحتاج إلى المال الذي أعطـــاه لـــك.. هددها.. طلقها.. أفعل ما شئت ولكن لماذا لا تبيع خاتمها الماس مثلاً؟

ظهر على محمد الارتباك.. ترك علاء حجرته وقال لأمـــه: أرجـــوك يا ماما.. إهدئي.

- لن أهدأ.. محمد.. إما أن تعيد لأخيك أمواله.. أو تنسى أن لك أماً.. طلقها إذن هذه المصيبة .. طلقها.. ألم تعد رجلاً؟

شد علاء يد أخيه ودخل به إلى حجرته وقال لأمه في هدوء: أتركيني أتكلم مع محمد.. لا يوجد مشكلة.. صدقيني.. لا أحتاج لشيء..

قبّل خدها وهمس في حنان: اهدأي يا ماما.

دخل الحجرة.. جلس.. يكره المشاهد الدرامية في البيوت المصرية.. الصراخ.. البكاء.. ثم العناق.. والضحك وكأن شيئاً لم يكن! لا يحب المسرحيات الدرامية.. أبداً

قال لمحمد: لا يهمك يا أخي أنا أعرف..

قاطعه محمد والدموع في عينيه ونظرة الانكسار لم تترك وجهه: عندها حق يا علاء.. أنا آسف يا علاء.. والدتي تقول الحق.. لا أستطيع السيطرة على زوجتي.. لم أعد أستطيع.. تبتزني بكل الطرق..

صمت فجأة .. ثم قال: سامحني يا علاء

ربت علاء على كتفه في حنان.. كان دائماً يأخذ بيد أخيه الصغير: أسامحك؟ إنك لم تفعل شيئاً.. أنا فقط أشعر بالقلق عليك.. بعد هذه العملية توقعت منك أن تغير طريقة حياتك..

- إنها تحتاج الكثير من المال.. تصرف ببذخ..

- محمد.. عليك أن تفكر في نفسك وفي أولادك.

- أنا أفكر في أولادي.. لو طلقتها.. سيتعذبون ستحرمني منهم لا أستطيع أن أتحمل هذا.

- الخوف.. الخوف سيقضي عليك يا أخي.. لماذا يخاف النـــاس هنـــا من كل شيء..

- أنا لا أخاف من كل شيء .. أنا أخاف على أولادي.

ربّت على كتفه من جديد: ربنا معـــاك يـــا أخـــي.. لا تقلـــق علـــيَّ أنا سأتصرف.

نظر له أخوه في مكر ثم قال فجأة: قل لي ماذا جرى بينك وبين رانيـــا امس؟

نظر له علاء في شيء من الغضب، شيء من الدهشة: نعم؟

- أقصد يا أخي الكبير.. ما علاقتك برانيا الآن؟

تنفس الصعداء.

- محمد علاقتي بزوجتي شيء يخصني وحدي.

- و.. ماذا عن الجميلة التي كنت تحبها؟

- محمد: لماذا لا تنشغل بمشاكلك أنت؟

- ولكنك أخي.. وأنا قلق عليك.. أخبرني.. ما أخبار الطبيبة الجميلة؟

- لا يوجد شيء لأخبرك به.

أطال محمد نظره إليه ثم قال في حب: آه يا أخي الكبير هـــل تتـــذكر كيف كان يتشاجر والدانا في الماضي؟

إبتسم علاء: نعم.

- دائماً يتشاجران من أجل المال. وفي كل مشاجرة تطلب أمي الطلاق ويوافق أبي ونذهب نحن إلى حجرتنـــا وتبقـــى أنـــت ســـاكناً متجهمـــاً، وأبدأ أنا في اللعب.

- نعم لا أدري كيف كنت تستطيع أن تكون بكل هذا البرود.

- لأنني تعلمت ألا أصدق كلامهم.

- تعلمت ألا تصدق كلام والديك؟

- نعم.. فهذا المشهد كان يتكرر على الأقل مرتين كل أسبوع وأنت تخاف من انفصالهم مرتين كل أسبوع وأنا لا أبالي لأنهم لا ينفصلوا.. ولم ينفصلوا.. هذا هو الفرق بيني وبينك يا أخي.

- أني لا أفهم والدي؟

- ربما وربما لم تفهم أشياء أخرى..

- لم أفهم أن الناس تعيش معاً هنا رغماً عنهم.

- وأن الناس لا تعني ما تقول.

-ولكن يجب أن يعني كل شخص ما يقول.

- ولكننا كلنا لا نعني ما نقول.. مثلاً أنا أقول لزوجتي كل يوم أنها أعظم إنسانة في الدنيا.

- لا أدري كيف تستطيع هذا.

- عليّ أن أنقذ رقبتي يا أخي.

-نعم.. الخوف.. الخوف هو سبب كل المصائب.

- وأنت؟

- أنا ماذا؟

- دائماً تعني ما تقول؟

- في أغلب الأحيان

نظر له محمد في مكر ثم قال: ولكن للضرورة أحكام بالطبع.

***

اليوم سيقابل زوجته.. ساعات وسيقابل زوجته.

عندما دق جرس الباب لم يكن يتوقع أن يرى.. محمود!

أطال علاء نظره لمحمود.. ومحمود يتكلم ويتكلم: تحتاج شيئاً يا علاء؟ اي شيء.. إعتبرني أخاً لك. هل تحتاج للمال.. أعرف في هذه الظروف..

ابتسم علاء وقال في برود: شكراً يا محمود.. لا أحتاج شيئاً ..

- علاء.. أي شيء.. لو احتاج الأولاد أي شيء..

نظر له من جديد ثم قال في فتور: طبعاً.. أنت أخي يا محمود.

خرج علاء.. وهناك فكرة تسيطر على عقله، زيارة محمود غيرت الكثير.

نظر إلى ساعته.. وسار وسار على شارع "الكورنيش".

جلس يستمع إلى الأمواج ويستنشق رائحة البحر.. اليوم لا يعرف ما هي رائحة البحر.

شعر بها .. وضعت يدها على كتفه وهمست في حنان: علاء...

نظر لها.. زوجته التي لم يعد يعرفها!

قال في هدوء: رانيا..إجلسي.. يجب أن أتكلم معك في موضوع.

قالت مسرعة: فكرت يا علاء.. كنت أفكر أمس وربما لو كنت تحتاج سيارتي.. سأبيع سيارتي و..

قاطعها في لهجة حادة: إجلسي..

أمسك بمعصمها وشدها إلى الرمال.. جلست.. نظرت إلى وجهه.. يبدو غاضباً.. يبدو مختلفاً.

همست: هل هناك مشكلة يا علاء؟ مشكلة جديدة؟

قال في نفس اللهجة الحادة: متى رأيتِ محمود آخر مرة؟

قالت مسرعة: يوم أن جاء ليفطر معنا في رمضان.

حملق في عينيها.. عبس وجهه ثم قال: كيف عرف بما جرى لي؟

قالت وقلبها يدق بسرعة مذهلة: لا أدري ربما أمي أخبرته.. ربما رشا.. هم على اتصال به.. هم..

صاح فجأة: لا أريدك أن تقابلي محمود مرة أخرى. هل فهمت هذا؟ أبداً!

قالت وهي تمسك بيده: حسناً.

قال في جفاء: إنك زوجتي.. هل تفهمين معنى هذا؟ زوجتي عليها أن تتصرف باحترام.

قالت مسرعة: أقسم لك.. لم.. لم أره منذ..

قاطعها: لا تقسمي.. عندما أطلقك يمكنك أن تريه.. أو حتى تتزوجيه.. يمكنك أن تفعلى ما شئت..الآن! أنت زوجتي. سأعود إلى البيت اليوم.

فتحت فمها فأكمل: سنتكلم على علاقتنا عندما تنتهي المشكلة التي أنا فيها وحتى هذا الحين ستتصرفين كما أريدك أنا أن تتصرفي.. فهمت؟

قالت في تلقائية لا تدري في فرح أم في حزن: فهمت.

قال في جفاء: وبعد ذلك..أتريدين الطلاق؟

بلعت ريقها في خوف.

– تريدين الزواج منه؟ هل اتفقت معه على ذلك؟ ما مدى علاقتك به؟

– علاء.. أنت تعرف أنه لا يوجد علاقة بيننا ولم يوجد.. كنت أشعر بالألم واليأس وأنا أراك تحب جيهان و..

لم يكن يستمع لها.. كان ينظر إلى لا شيء.. هو يثق في زوجته.. ماذا حل به؟ إلا أنه الآن لا يملك شيئاً ومحمود يملك كل شيء.. لم يعتد الاستسلام..

قالت في رقة وهي تمسك يده من جديد: ما رأيك في هذا الاقتراح؟ السيارة والذهب.. ثم بعد أن تنتهي هذه المشكلة يمكنك أن تطلقني.. أريد هذا ..لا أحب الإمتنان.

نظر لها ليدها التي تمسك بيده.. وسمع صوتاً محشرجاً يعرفه جيداً: إيه.. تاني.. إتق الله في الولايا يا أخي.

نفخ في غيظ من جديد ولم يتكلم.

قام وهي معه.. سار وسارت بجانبه.

قال في ازدراء: لا توجد خصوصية في هذا البلد لا توجد خصوصية.. الناس تتنفس في قفاك هذه هي المشكلة.. شيء مستفز!

لم تتكلم.

فأكمل: لا أريد منك شيئاً يا رانيا.

قالت مسرعة: ولكني أنا أريد.. أريد.. "سمك"!

ثم أكملت وكأنها على وشك أن تكشف خطة حربية عبقرية: ما رأيك؟ نشتري سمكاً مشوياً من السوق ونأكله على البحر؟

نظر لها في دهشة.. ثم قال في سخرية: سيراه البائع والطباخ .. والناس على البحر و..

قاطعته في نشوة: أحبك.. اليوم أحبك.. أحبك..

نظر لها في ذهول ولم ينطق.

كانت تشعر بنفسها تجري.. تقفز.. فرحة.. لا تدري لماذا.. إلا أنه كان يغار عليها؟ أهذا ما يفرحها؟

فقط هي سعيدة.. كانت تتمنى أن تراه، أن تبقى بجانبه بعض الوقت.. فقط بعض الوقت..

سيعود معها إلى البيت.. ما أسعدها.. نشوة غريبة!

تريد أن تصرخ.. تقبله.. تغرقه بالقبلات.. لا تأبه بشيء..فليحبها فليكرهها.

أخذ يتفحص وجهها.. نشوة.. لماذا كل هذه النشوة؟

أمسكت بالسمك من الرجل ثم اشترت بعض الخبز "الأفرنجي" الطويل وأمسكت بيده وراحت تجري.. تخترق الشوارع وهي تجري.. ثم جلست على الشاطيء.. الرمال الباردة مثل يديه.. حنونة ومنعشة!

لم ينطق.. كان فقط ينظر إليها.

فتحت لفافة السمك المشوي بالرَدَّة، كانت لفافة كرتون حمراء.. أعطته واحدة..

- تغيرتي يا رانيا..

- لا لم أتغير كنت دائماً هكذا.

- متى؟

- لا أدري.. بداخلي ربما.

أكلا معاً.. أخذت تقشر السمك بسرعة ويداها غارقتان في قشر السمك ثم غسلت يديها في مياه البحر.. ضحكت وضحكت.. ونجحت في أن تسرق من فمه ضحكة أو ضحكتين.

ثم قالت: ترى ماذا سيجرى الآن لو.. عانقتك؟

إبتسم قائلاً: ربما ينتهي بنا الأمر في السجن!

قالت وهي تنظر إلى المياه: أتعرف ماذا أحتاج الآن؟

- ماذا تحتاجين؟ أن تغطسي في المياه في وسط الشتاء؟

- لا.. أن أعانقك! هيا إلى البيت أريد أن آخذك بين ذراعي الآن.. هيا

جرت.. شدته.. فتحت باب شقتها بيد مرتجفة وقلبها يختلج.. وما أن دخلت حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه.. وهي تهمس: بحبك قوي يا علاء.

أحاط خصرها ولم ينطق.. لم يكن يفهم زوجته.. لم يعد يفهمها.

سقطت دمعة واحدة من عينيها.. لم يرها.. مسحتها بأصابعها ثم همست من جديد: وأنت؟.. لا .. لا تكذب.. لا تقل شيئاً.. أنا آسفة.. أتصرف بطريقة مجنونة و..

قبل أن تكمل قبّل خدها في رقة.

ماذا جرى لزوجته.. أصابها مس من الجن!

وهو.. لم يعد كما كان! أصبح حاد المزاج.. و..

يكرهها؟

يكرهها لأنها آلمته.

فقط يكرهها!

تركته فجأة.. نظرت حولها قائلة: يجب أن نذهب لأمي لنأتي بأحمد ورامي.. إفتقداك يا علاء.. كلنا افتقدناك.

كانت تتصرف في شبه هستيرية ماذا بها؟ ماذا حل بزوجته؟

قالت مسرعة وهي تتجه إلى المطبخ: سوف أجهز شاياً.

- لا أريد شاياً يا رانيا.

- لم أسألك يا علاء. سوف أجهزه لنفسي!

إبتسم في دهشة.

مرة أخرى إستمر يحملق فيها بلا كلمة.. حوالي شهرين.. شهرين قضاهما بعيداً عنها. هل بعد عنها؟ رآها فيهما أكثر مما رآها في ست سنوات.

جلست بجانبه وقالت في حنان وشيء من الأسى: اليوم أنت لي. غداً ستعود الطبيب الناجح.. اليوم..

تمدد على الأريكة.. وكأنها ذكرته.. بما كان يود أن ينسى.

قال في مرارة : نعم.. غداً.. ربما أعود طبيباً؟

***

الفرح كان يقفز من عينيها وهي تأخذ أولادها من بيت والديها في سيدي جابر.. وزوجها معها.. كان معها..

إبتسمت رشا في فخر: هذه فكرتي أنا.. ألم أطلب منك أن تغويه!

ضمتها رانيا في فرح: أنت أحسن أخت في الدنيا.

نظرت لها رشا برهة ثم قالت: تحبينه كل هذا الحب؟

شعرت بشيء من الإرتباك ولم تنطق.

قالت رشا في لامبالاة: أنا لم أحب أحداً هكذا أبداً.

- لا تحبين زوجك؟

- أحبه.. رجل والسلام.. كل امرأة تحتاج إلى رجل.. أنت تعرفين هو ليس أول حب في حياتي.. ولكنه آخر حب.. فبعده.. كرهت كل الرجال!

قالتها وهي تضحك.. ثم أكملت في لهجة جادة: رانيا هل زوجك يحب امرأة أخرى كما قلت؟

قالت في تلقائية: نعم.

- لماذا؟

- لا أدري لماذا.. لأنها ذكية.. لأنها طبيبة.. لأنها جميلة.. رقيقة.. أرستقراطية.. لأنها تتكلم اللغة الإنجليزية.. لا أدري..

فكرت أختها قليلاً ثم قالت: لا يمكنك دراسة الطب الآن.. ولكن يمكنك ان تصبحي مثلها.. أوصفيها لي..

- بيضاء.. طويلة.. شعرها أسود ناعم وطويل.. ملامحها رقيقة.. عيناها واسعتان.. رموشها طويلة .. نحيفة..

قاطعتها رشا: هذا يكفي..

ثم نظرت لها .. تفحصتها وقالت: تحتاجين تغيير لون شعرك.. لو غيّرت لون شعرك سيبدو وجهك أكثر بياضاً.. ويجب أن تُقللي من أكل الحلويات يا رانيا.. إذا كنت تريدين زوجك امتنعي عن أكل الشيكولاتة.. يعني.. رانيا يجب أن تكوني امرأة جديدة كل يوم.. الرجل بطبعه يمّل بسرعة.. يحب التغيير..

قالت رانيا في صرامة: لن أتغير.. أنا سمراء.. قصيرة.. ملامحي حادة.. شفتاي رفيعتان..

قاطعتها أختها: حتى شفتاك يمكن أن نغيرهما.. كل الممثلات يغيرن ملامحهن.

- أنا لست ممثلة.. ولن أتغير.. حاولت من قبل ولم أستطع.. لن أبذل أي مجهود.. أنا هكذا.. لو لم يكن يريدني هكذا فليتزوجها هي.. كيف تريدينني أن أصبح هي.. كم تعذبت وأنا أرتدي قناع امرأة أخرى طوال تلك السنوات.

قالت أختها في لامبالاة: رانيا.. كلنا نرتدي أقنعة.. زوجك يرتدي قناعاً.. كان يرتدي قناعاً.. ألم يصفعك؟ هل توقعتِ أن يصفعك؟ عندما خلع القناع كان شخصا آخر.. لو لم ترتد النساء الأقنعة كانت كل البيوت الآن قد خربت.. أتفهمين.. لا بأس من بعض التمثيل.. كلنا نمثل يا رانيا.

- أنا لا أحب التمثيل.. التمثيل يعذبني..

- رانيا..

قالت في شيء من اليأس: لو أرادها هي، فليذهب إليها.. لن أمنعه.. ولن أحسن من نفسي.. ربما يذهب إليها في النهاية.. ولكنه الآن معي وهذا يكفي.

- هذا هراء يا أختي الصغيرة.. ستندمين .. أتتذكرين حالك عندما تركك شهرين؟

- ربما أندم.. الحب بيد الله.

- ربنا قال "اسع يا عبد وأنا أسعى معك"

- لقد تعبت من السعي.. أحتاج لن أكوّن نفسي بعض الوقت.

***

الفصل الرابع

عندما صاحت رقية المنيسي أنها تريد علاء.. ولا تريد غير علاء طوال الشهر الماضي.. إضطرت زوجة ابنها أن تخبرها بمشكلة علاء ولكنها صممت... تريد علاء!

كان عليه أن يذهب إليها.. يحبها .. يحب رقية .. ولا يريد أن يراها الآن.. ليس وهو مهزوم هكذا!.. ولكنها تحتاجه.. واجبه أن يذهب إليها.

إبتسم لها كعادته.. فأشارت له بيدها اليمنى بأصابعها الخمس بالجلوس ثم قالت: الجهل! لأنك تعرف.. لأنك لست جاهلاً.. لهذا يريدون تحطيمك.. الجهل مشكلة.

شعر بشيء من الارتباك ثم أجاب: لا يهم.. مشكلة صغيرة وسوف أتغلب عليها.

- كيف حالك يا دكتور؟

إبتسم في حنان: بخير.. وحضرتك؟

تجاهلت سؤاله: وكيف حال زوجتك؟

- بخير.

لماذا تسألين عنها؟

قالت في تهكم: مازالت ملاكاً؟

قال في تلقائية: لا.. أصبحت إنسانة الآن!

ضحكت ضحكتها القوية وهي تفتح فمها وكأنها تِرام بدأ لتوه السير على القضيب!

ربّتت على يده بأصابعها المرتعشة: تستحق كل خير يا بني.

أمسكت بقلبها قائلة: بدأت أشعر باختناق يا علاء.

أمسك بمعصمها ثم تفحص عينيها قائلاً: أنت لا تأكلين تحتاجين إلى فيتامينات و..

قاطعته: أحتاج إلى دكر بط بلدي وصينية رقاق بالشوربة والسمن البلدي.

إبتسم قائلاً: ربما تحتاجين هذا بالفعل.. سأكتب لك بعض الفيتامينات وأريدك أن..

صمت فجأة.. شعر باختناق غريب.. وكأنها رأت الاختناق في عينيه.. شعرت به.. قالت في صوتها العجوز: تحتاج شيئاً يا علاء؟ أي شيء؟

هز رأسه بالنفي.

قالت من جديد: أريد أن آكل البط معك! متى ستأتي.. أريد أن أراك.

إبتسم قائلاً: قريباً إن شاء الله.

خرج في هدوء.. سمع صوت زوجة ابنها: دكتور علاء.. تفضل أجرة الكشف.

هز رأسه بالنفي: شكراً.. لم أكشف.. لا أستطيع.

عاد إلى بيته.

دخل من الباب.. إلى حجرة نومه.. أغلق الباب.

أمسك برأسه.. وشعر برغبة جامحة لأول مرة منذ عشــرين عامــاً.. في البكاء.

فليبك ماذا في ذلك؟

يتذكر آخر مرة بكى فيها.. كــان فــي الصــف الأول الإعــدادي .. كسر ذراعه.. الألم كان أقوى منه.

لماذا يجهد نفسه في التفكير.. دائماً يفكر كثيراً..

لماذا أذله الزمن كل هذا الذل؟

لا لن يبقى ينعي حظه.. ســيفعل شــيئاً.. أيــام وســيظهر الحــق.. هو متأكد..

دقت زوجته على الباب فقال فــي صــوت حــازم: لا تــدخلي الآن.. أريد أن أبقى وحدي.

بقت وراء الباب والقلق يقطعها.

تساقطت الدموع من عينيه في صمت.

مرارة الظلم لا تضاهيها مرارة!

ومرارته عميقة عمق البحر.. وعنيفة عنف أمواج الشتاء.

أخذ يمسح دموعه.. في هدوء.

فتحت الباب.. لم يشعر بها.. دخلت.. نظرت له.. أمسكت بيده.

لم تر زوجها هكذا أبداً!

لهيب يحرق حلقها.. لم تستطع أن تنطق.

مسح آخر دمعة ثم قال في صوت قوي: أين أحمد ورامي؟

قالت في صوت محشرج: .. علاء..

قاطعها في جفاء: لا أريد أن أسمع شيئاً الآن.

قالت في رجاء: علاء أرجوك!

تمدد على السرير وقال: إطفئي النور. أريد أن أنام.

أغمضت عينيها والخوف يتسرب إلى عروقها كالدواء المثلج الذي يتسرب إلى العظام الدافئة.. لماذا كل هذا الحزن اليوم.. أين ذهب؟ هل هي السبب؟.. عليه أن يكون مع المرأة التي يريدها وليس معها هي.. هل هذا ما يحزنه.. لا.. هي تعرف.. الظلم.. الظلم قبيح.. وشرس..

هل نام؟

على الأقل هو هنا بجانبها.

أدارت وجهها.. لا .. لا تريد أن تراه .. لا تستطيع.. هو أيضاً أدار وجهه.. لا تستطيع حتى أن تلمسه الآن..

تشبثت بالسرير.. لدقائق.. ثم أدارت وجهها له فجأة.. أمسكت بكتفه وهزته قائلة: حبيبي..

لم يجب.

قالت في رجاء: تكلم معي.. أرجوك!

لم ينطق

بدأت تخاف عليه.. لماذا لا يجيب؟

صاحت في أذنه في فزع: علاء!

قال في هدوء دون أن يتحرك: أنا أسمعك يا رانيا.. ماذا تريدين؟

قالت متلعثمة: السيارة والذهب.. لأنت اشتريتهما لي.. وستشتري لي غيرهما.. هل تريد أن تسمع رأيي.. إنك لم تسمع رأيي من قبل.. أبداً.. لأني لم أتفوه بأي رأي.. لتريد أن تسمع رأيي؟

أدار وجهه لها.. نظر لعينيها قائلاً: تكلمي.. أنا أسمعك.

وكأن كل القنوات الفضائية.. استضافتها على الهواء مباشرة للكلام عن قضايا القرن العشرين.. شعرت بخجل لا يوصف.. ارتباك لا يوصف.. ولم تنطق!

نظر لها من جديد في شيء من التهكم.. شيء من الدفء: رانيا.. هيا تكلمي..

قالت في ارتباك: علاء

ستتكلم.. ستقول ما يدور بخاطرها.. لا لا تخشاه.. ولا تخشى غضبه!

لماذا تتلعثم من جديد إذن؟

- علاء

قال في تهكم: فقط تريدين نطق اسمي.. أهذا ما تريدين يا رانيا..

قالت في شيء من الغضب: علاء.. لا تسخر مني..

إبتسم.. أيبتسم؟.. جعلته يبتسم.. نجحت إذن..

فجأة.. قالت في ثقة وحماس: يجب أن.. أن تتفق مع الشهود قبل القضية.. تحتاج أن تتفق معهم يا علاء.

قال في صرامة: لا.

ها هي أغضبته.. لا يهم.

قالت في حماس من جديد: إفهمني.. لست في موقف اختيار الآن.. عليك أن تعرض عليهم أكثر.. أن تفهم لماذا فعلوا ما فعلوا.. لابد أن تلعب لعبتهم.. ثم تصبر.. ربما يوما عندما تكون في مركز قوى تغير ما حولك.. ولكن الآن.. هم يدمرونك.. لو تركتهم هكذا سيدمرونك.

طوال حديثها وهو يستمع لها يحدق في عينيها.

قالت مسرعة: كلامي ربما يجعلك تغضب مني لا يهمني.. لم يعد يهمني غضبك.. فقط تهمني سعادتك.. فكّر في كلامي.. فقط فكّر فيه يا علاء.

هز رأسه بالنفي.. فقالت من جديد: فقط فكّر فيه.. حاول أن تعرف لماذا فعلوا هذا.

قال وهو يدير وجهه: الآن أريد أن أنام.

أمسكت بكتفه هزته قائلة: عدني أنك ستفكر فيما قلت.

قال في ملل: أريد أن أنام يا رانيا.

قالت في نفس الحماس: لن تنام قبل أن تعدني.

أغمض عينيه في غيظ.. هل يترك الحجرة الآن! ولكنه متعب!

هزته من جديد: علاء؟

- أنا نائم يا رانيا.

همست في رجاء: لا أنت لست نائماً.. لن تنام حتى يرفع الظلم عنك.. فقط فكر لا أريدك أن تفعل ما اقترحته.. فقط فكّر.

قال في ملل: حسنا يا رانيا .. سأفكر.

فقط يريدها أن تكف عن الإلحاح.. يا إلهي كيف تحملها طوال تلك السنوات.. كانت مختلفة.. أغمض عينيه من جديد.. فشعر بأصابع قوية تدق على كتفه: علاء.. تصبح على خير.

لم يجب.. أخذ يردد لنفسه: سيطر على أعصابك يا علاء.. سيطر على أعصابك.

شعر بذراعيها يطوقان خصره في بطء.. لم يتحرك.

أغمضت عينيها.. إبتسمت شعرت براحة غريبة.. ما أجمل أن تقول ما تريد بلا خوف.. لم تعد تخشاه.. لا..

***

نظر لزوجته من جديد.. وهي تصنع السندوتشات لولديها.. ثم قال في تهكم: الأطفال يحتاجون أن يأكلوا يا رانيا.

قالت في براءة: بالطبع.. لذا أصنع لهم السندوتشات.

- يحتاجون بروتينات.. لحم.. خضار.

- نعم أعرف.. لذا يأكلون وجبة على الأقل عند أمي كل يوم.

إبتسم في تهكّم: لا تطبخين أبداً.. كنت تطبخين كل يوم.

قالت في تلقائية: لا أحب الطبخ.. أكره الطبخ.

- الإنسان لا يفعل فقط كل الأشياء التي يحبها.. هناك واجبات و..

نظرت له وكأنها تفهم قصده.. ثم همست وهي تقترب منه: لـو كنـت تريد شيئاً وتحبه يا علاء إفعله.. لن تضرني.. أعرف أنك لا تحب الظلم.. لن تظلمني.. أعدك لن أغضب.

قال في غضب: شيء كماذا؟

قالت في لامبالاة: كچيهان

قال في جفاء: لا تتكلمين هكذا أمام الأولاد.. أبداً.

شعرت بشيء من الخجل وقالت: أنا آسفة

ثم أكملت في حماس: سوف أطبخ من اليوم.. تريدني أن أطبخ؟

قال وهو ينظر إلى عينيهـا: لا.. إفعلـي مـا تريـدين أن تفعلـي.. ماذا تريدين يا رانيا؟

فاجأها بسؤاله.. قالت في تلقائيـة: لا أريـد شـيئاً.. لريـد أن أحيـا في سلام.. أربي أطفالي.. وأقرأ روايات رومانسية و..

قال في جفاء: لا تريدين أن تعملي؟

- لا

- ولكن أختك كانت تتمنى أن تعمل.. وزوجها رفض.

- أنا لا أريد أن أعمل.. ولا أن أقرأ في السياسة.. ولا فـي الطـب.. أريد أن أقص القصص على أطفالي كل يوم وأصلي و..

قاطعها في ملل: حسنا.

دخل حجرته.. شعرت بالألم.. بالطبع يظن أنها مملة.. وغبية..

لا.. لن تغير نفسها من أجله.. هو يحب أخرى..

ولكن..

دخلت عليه الحجرة وقالت في رجاء: علاء.. أنا آسفة.. كنت مستفزة، أعرف.. أنت على صواب.. سأطبخ و.. ربما عليّ أن أبحث عن عمل، نعم فـ..

قاطعها في هدوء: لا توجد مشكلة يا رانيا.. أنا لا أريدك أن تعملي.. ولا أن تطبخي.

- ولكن.. أنت تضحي بالكثير من أجلنا.. أنا أعرف و.. لا تضحي يا علاء.. لماذا تضحي؟

صمتت ثم أكملت:.. تعرف لو كنت مكانك؟

نظر لها في دهشة وتهكم وفضول: لو كنت مكاني..

قالت في حماس: كنت سأذهب إلى چيهان.. آخذها بين أحضاني وأنسى كل شيء.. عن زوجتي المملة وأولادي وعائلتي و.. الحرمان فظيع.. وأنت تعيش مرة واحدة..

نظر لها ثم ابتسم قائلاً وهو يربت على كتفها: شكراً على النصيحة يا رانيا.. أعدك سأفكر.

بلعت ريقها في خوف ثم قالت في فزع: تفكر في ماذا؟

إبتسم من جديد: فيما قلتيه الآن.. في أن أرتمي بين ذراعيها.. و.. ماذا قلت أيضاً؟ كل هذه الفلسفة.. الإنسان يعيش مرة واحدة.. والحرمان و.. ماذا؟ هذه الكلمات الكبيرة.. قوليها مرة أخرى.

قالت في غضب: كنت أمزح.. لا تصدق ما كنت أقول..

ضحك وهو يجلس على السرير قائلاً: لماذا؟ أنت تتكلمين كلمات عاقلة.

قاطعته وهي تخرج في عصبية: لن أطبخ يا علاء.. فلتفعل ما تريد.

عندما عادت كان ممدداً على السرير يقرأ كتاباً في الطب كعادته..

قالت في حنان: تريد شاياً؟

هز رأسه بالايجاب.

ذهبت إلى المطبخ أخرجت فنجانه الكبير.. ووضعت بعض الحليب ثم وضعت الشاي.. نظرت إلى الكوب برهة.. منذ تزوجته.. وهو يشرب الشاي بالحليب في هذا الفنجان وبدون سكر.. وهي تشرب الشاي في كوب مع ثلاث ملاعق من السكر وبدون حليب. قال إنه منذ عاد من بريطانيا وهو يشرب الشاي هكذا مثل الإنجليز شاي بالحليب وبدون سكر.. ويضع الحليب أولاً ثم يصب الشاي بعد ذلك..

أخذت تفكر دقائق .. سكبت الشاي.. أخرجت كوباً وضعت ثلاث ملاعق سكر وبعض النعناع والشاي وخرجت من المطبخ.

مدت له يدها قائلة: تفضل يا دكتور.

نظر لها في دهشة ثم قال: أنا لا أشرب الشاي هكذا.

قالت في ثقة: ولم لا؟

نفخ في غيظ: رانيا لا أريد شاياً.. فقط أتركيني أقرأ.

جلست بجانبه وقالت: ألن تشكرني لأني جئت لك بالشاي؟ لقد تغيرت يا علاء .. كنت تشكرني طوال الوقت.. كنت رقيقاً.

هز رأسه بالايجاب: نعم تغيرت.

– هل طلبت من أخيك المال الذي أعطيته له؟

نظر لها في دهشة ثم قال في غيظ: هذا ليس من شـــأنك هــذا بينـــي وبين أخي..

قالت في غضب: كيف تتكلم معي هكــذا؟ كنــت أســأل لأننــا الآن.. أعني معي ما يكفي لشراء الخبز والجبن ..

– رانيا.. لم أعد أتقاضى مرتباً.. لدي القليل مــن المــال وعلينـــا أن نعيش به.

– لو بعت بعض الأشياء.. الذهب والسيارة.. سأبيع...

نظرت للعقد الذي كانت ترتديه وقالت فـــي حــزن: ســأبيع العقــد.. أحبه لأنك اشتريته لي ولكن..

نظرت له.. للشجن الذي يظلل عينيه.. حنان غريب طغـــى عليهـــا.. كم تود أن تقبله الآن.. قالت في غيظ: أخوك يا علاء.. جبان!

نظر لها في فزع: ماذا قلت؟

– قلت أن أخاك جبان! هل هذا رجل؟ يخاف من زوجته وكأنه فـــأر.. زوجته التي تشبه النسناس الأشقر! هل رأيت يوماً نسناساً أشقر!

لم يستطع أن يمنع الضحكة التي خرجت منه.. ثم قال وهـــو يتــزعم الجدية: كيف تسبي أخي أمامي.. رانيا! إياك أن..

قالت مسرعة: أنا أحبه.. هو طيب.. ولكنه جبان.. أنـــا لا أســبه أنـــا أصفه.. الرجل هو من يضع حدوداً لزوجته.. هو من يقود سفينته بنفسه.. لا يوجد امرأة تحترم الرجل الضعيف.. أبداً.. صدقني.. حتى ولو فرحت المرأة بالزوج الذي ينفذ لها كل ما تريد.. فهي لن تحترمه..

إبتسم وقال في سخرية وهو يقترب منها: المرأة تحب الرجل القاسي!

هزت رأسها بالإيجاب في حماس.

فنظر لها في فضول..

قالت مسرعة: لا .. أعني ليس الرجل القاسي.. الرجل القوي.. أنت مثلا!

قال في دهشة: آه عدنا للإطراء من جديد.. كم افتقدت إطراءك عليّ.

– لا.. أنا أظن .. أن .. أتكلم عن أخيك..أرثي لحاله.. هو يتنازل ويتنازل وهي تستغله وتستغله.. ويوماً لن يجد ما يعطيه لها.. وسيكون الاختيار لها إما أن تلقي به في سلة المهملات أو تحتفظ به كتحفة فنية في بيتها.. خيال مآتة يعني.

قال في دهشة: أخي أنا خيال مآتة؟

– أنا آسفة يا علاء كنت أقول رأيي.

– تتأسفين كثيراً اليوم يا رانيا.

قالت فجأة: لم تعد تقول يا حبيبتي.. كنت دائماً تقول يا حبيبتي..

قال في عدم اكتراث: ولماذا أقولها؟

قالت في أسى: نعم.. لماذا تقولها...

***

أمسكت بالسيجارة التي في فمه قائلة: ستضر صحتك.

نفخ في غيظ قائلاً: هذا ليس من شأنك يا رانيا.. أرجوك أتركيني وحدي ولو لدقائق.. هل أترك البيت؟ هل تفضلين هذا؟

قالت في غضب: أنا أخاف عليك.. لم "تعتاد" التدخين.

– إعتدته الآن.

- لماذا تتحداني؟ لا توجد مشكلة.. أنا أخاف عليك فقط.

دخل حجرة نومه وأغلق الباب وبدأ في ارتداء ملابسه.. فتحت الباب قائلة: علاء.. أين ستذهب الآن؟ ألن تأكل شيئاً؟

قال في تهكم: آكل؟ آكل ماذا؟ لا يوجد أكل في البيت.. لا يوجد سوى سندويتشات الآن.

قالت في براءة: تريد سندويتش جبنة رومي؟ تحبها يا علاء

قال في غضب: فقط أريد أن أكون وحدي.. فقط اتركيني وحدي.

- أصبحت عصبياً جداً هذه الأيام.

لم يجب.. إرتدى حذاءه واتجه إلى الباب فقالت مسرعة: رشا وزوجها قادمان اليوم يا علاء.. أرجوك لا تتأخر.

لم يجب.. خرج وأغلق الباب وراءه.

بقيت مكانها لا تتحرك.. حتى سمعت صوت رامي يناديها.. ذهبت له.

تخاف على زوجها.. تقلق عليه.. حالته تسوء منذ ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى رقية المنيسي.

وماذا بيدها أن تفعل؟ ستذهب إلى المحامي.. نعم.. عليها أن تتصرف هي.. فطالما زوجها يشرب شاياً بالحليب من الفنجان لن يستطيع أن يتصرف..

إبتسمت لنفسها.

خرجت.. ذهبت أولاً إلى والديها تركت أطفالها هناك واتجهت إلى المحامي.

قالت في قوة: هل تناقشت مع الشهود؟ لماذا فعلوا هذا؟

-أظنها مكيدة.. ربما طبيب آخر يكرهه.. عبد الكريم.. أعتقد إسمه عبد الكريم.

- ولماذا تفعل الطالبة هذا؟

قال الرجل: لماذا؟ لأسباب كثيرة.. لأنها رسبت في العام الماضي مثلا.. لأن عبد الكريم هددها أو وعدها بالكثير..

- وماذا عن الممرضة والساعي؟

- يمكن شراؤهما كما ترين.

قالت في فرح: يمكننا نحن شراؤهما أيضاً في هذه الحالة.

سكت المحامي لحظات ثم قال: ربما.. هل تريديني أن أحاول؟

- هل يوجد مغامرة في المحاولة؟

- لا أظن أن هناك مخاطرة في جس النبض!

قامت في فرح ربما هناك مخرج.. إن شاء الله هناك مخرج.

ذهبت إلى بيتها.. أعدت بعض الحلوى وجهزت العصائر.. فاليوم زوج أختها سيأتي لأول مرة منذ سنتين.. أجازة قصيرة..

دق جرس الباب.. ففتحت.. دخلت والدتها والعرق يتصبب منها.. عانقتها وقبّلتها.

دخلت أختها وهي تضحك كعادتها.. وترتدي أفضل الملابس..

فستان أحمر حرير.. حجاب أحمر.. عدسات زرقاء.. أحمر شفاه أحمر فاقع.. حقيبة حمراء.. الكثير من طلاء الأظافر الأحمر.. بدت كذات الرداء الاحمر! في كل إصبع في يديها خاتم ذهبي أو اثنان.

دخل زوجها.. كم هو مستدير.. غليظ الشفاه.. أسمر.. أصلع ودائماً متجهم.. يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً يتحرك البنطلون في عدم استقرار حول "كرشه". ولكنه طيب القلب.. رانيا كانت دائماً تشعر أنه طيب القلب.

ربَّت على يدها وقال في جدية: كيف حالك يا رانيا وحال علاء والأولاد؟

- بخير وأنت يا شوقي.. كيف حالك وحال الـ..

صمتت فجأة .. لم تلاحظ وجود شخص آخر معهم.. سمعت ضحكاته.. محمود!

بلعت ريقها في ارتباك وشيء من الخوف.. وابتسمت له.. ربَّت على يدها..

دخلوا جميعاً.. إلى غرفة المعيشة.

وقفت تلتقط أنفاسها لحظات أمام الباب..ماذا بها؟ ما المشكلة؟ ابن خالها يزورها.. أتخاف منه من جديد؟ من علاء؟

نعم.. فمنذ ذلك اليوم الذي قالت فيه أنها تحب محمود وهو مختلف.. أحياناً لا تدري أيصدقها أم لا.. والآن.. إذا وجد محمود!

ربما لا يأتي مبكراً .. نعم ربما يعود بعد أن يرحل محمود ..

عليها أن تتصرف بقوة وحكمة.. ما المشكلة إذا زارها ابن خالها..؟

هي تعرف زوجها.. لم يعد هادئاً كما كان.. و.. لن يبقى صامتاً.

زوجها عاقل ومتعلم و..

وشرقي.. لا .. لم يتغير.. ابتسمت في تهكم.. ماذا تعلم من بريطانيا؟ جذوره لم تتغير.. أراد الفتاة البريئة التي ترضي غروره.. وها هي الفتاة البريئة.. تعترف له بأنها تحب رجلاً آخر.. وضعت يدها على وجنتها صفعها.. ماذا سيفعل اليوم؟

لا شيء.. لن يستطيع.. علاء لم يكن يوماً غليظ الطباع.. فقط الظروف و...

أولا ستصلي العصر ثم تفكر.. ستصلي العصر قبل أن يأتي المغرب عليها.

انتهت من الصلاة ثم رفعت يديها إلى السماء وهي تدعوالله: يا رب اجعل هذه الزيارة تمر بسلام.

نست دعوتها اليومية.. يا رب اجعل زوجي يحبني..

دخلت على ضيوفها بالعصائر والحلوى وهي تبتسم.

جلست كعادتها.. في مكان صغير على الأريكة منكمشة.. وهادئة ولم تنطق..

بدأت رشا في الضحك.. وزوج رشا في الكلام.. ثم قالت والدتها: كيف حال علاء يا رانيا.. محمود وشوقي يريدان الكلام معه اليوم ويمكنهما مساعدته لو احتاج شيئاً.

قالت مسرعة: شكراً .. هو لا يحتاج شيئاً

بدأ شوقي في الكلام: الدنيا اتغيرت في مصر.. الموبايل أصبح أهم من البيت.. والزوجة أيضاً

ضحكت رشا قائلة: شوقي إياك أن تفكر هكذا!!

- رشا.. قولي الحقيقة.. هل تحبيني نصف حبك للموبايل الجديد الذي اشتريته لك من السعودية؟ كم مرة طلبتيه مني؟ بصراحة.. أحياناً كنت تتكلمين معي فقط من أجل الموبايل.

قالت أمها مسرعة: أنت الخير والبركة يا شوقي.. هيه الست لها مين غير جوزها؟

قال محمود وهو يضحك: أنا البطة السوداء هنا.. متى ستجدي لي عروسة يا عمتي؟

قالت رشا مسرعة: تزوج ابنتي.. كام سنة وستصبح فتاة.. عشر سنوات.. لو انتظرت عشر سنوات سأزوجها لك يا محمود.. أين ستجد عريساً مثلك؟

قالت الأم : إنها تمزح يا محمود.. لا تصدقها.

ضحكت رشا: أنا لا أمزح.. على كل أم أن تفكر في مستقبل بناتها.. الرجال شحيحة الآن.. يا بختك أنت يا رانيا.. ليس عندك بنات تقلقي على مستقبلهن.

إبتسمت ولم تجب.. كعادتها.

قال محمود بصوته العالي: لم تتغيري يا رانيا.. مازلت كما أنت هادئة.. وعاقلة..

أمسكت رشا بالموبايل الجديد أخذت تتفحصه في اعجاب ثم قالت لأختها: انظري يا رانيا.. يمكنني أن ألتقط صورة لك الآن..

نظرت رانيا للهاتف في تعجب فقال شوقي مسرعاً: علاء ليس عنـــده موبايل؟

قالت في هدوء: عنده واحد يستعمله للعمل فقط.

نظر محمود إلى التليفزيون القديم وجهاز التسجيل ثـــم قـــال: رانيـــا.. أنتم تعيشون في عصر مختلف.. أين السي دي والدي فـــي دي.. تعـــرفين يمكنني أن أساعد زوجك على العمل في السعودية.. لو أراد.

قالت رشا وهي منهمكة فـــي تشـــغيل الموبايـــل: رانيـــا أنظـــري.. هذه صورتك.. رامي تعالى يا حبيبي علشان أصورك.

قال شوقي: أتري يا رانيا.. أختك سألتني أول ما رأتني مـــا إذا كنـــت اشتريت لها الموبايل أم لا.. لو لم أشتريه لها.. يا ويلي لو لم أشتريه لها.

سمعت صوت زوجها يفتح الباب بمفتاحه.. إنتفضـــت مـــن مكانهـــا.. جرت إلى الباب.. وهي تغلق باب حجرة المعيشة..

إبتسمت له والاستجداء واضح في عينيها: علاء، أمي ورشا وشوقي هنا

قال في لامبالاة: حسنا.

ارتعش صوتها وهي تقول: ومحمود!

نظر لها.. ثم قال وهي ترى شعلة غضب تشتعل فـــي عينيـــه: لمـــاذا؟ ألم أقل لك أني لا أريده في بيتي؟

قالت في استجداء: كيف كان يمكنني أن أطرده يا علاء؟ لم أكن أعرف أنه سيأتي اليوم.. أعدك لن تتكرر..

حملق في عينيها برهة.

لا تدري ماذا يدور بداخله الآن.. ولكنها نادمة.. نادمة على الكلمات التي قالتها في لحظات الغضب واليأس.. نادمة على مجيء محمود ولا تريد أ ن تغضب زوجها.. لا ليس وهي ترى حالته.. لا تريد هذا.

فجأة قال في هدوء وثقة: لا بأس..

نظرت له في دهشة وسارت وراءه وهو يفتح باب غرفة المعيشة.. بدا هادئاً.. واثقاً.. ابتسم لشوقي.. صافحه وعانقه: حمد الله على السلامة.

صافح رشا وحماته.. ثم صافح محمود.

قال شوقي في حماس: هل رأيت الموبايل الذي اشتريته لرشا.. بخمسة آلاف جنيه تصور.. كانت مصممة على هذا النوع بالذات.

إبتسم علاء.. قالت رشا في غضب: حتذلني عليه.. خُدْهُم "الخمس تلاف" جنيه على جزمتي!

نظر لها زوجها في غضب وصاحت أمها: رشا.. احترمي زوجك وولي نعمتك.. كتَّر خيره.. ربنا يخليك وتجيبلها يا شوقي..

لم ينطق زوجها.. كان ينظر لمحمود.. ثم لحماته.. ثم زوجته.. شعرت بشيء من العصبية على وجهه.. شيء من الملل.. لا تدري.. التقت عيونهم فأدار عينيه.

قال شوقي من جديد: الأسعار نار يا علاء.. كيف تعيش في هذا البلد؟

لم يجب.. هو لا يعرف الإجابة.. كيف يعيش في هذا البلد؟ لا يدري.

قال محمود بصوته العالي: كل هذا بسبب تعويم الجنيه المصري.

قالت حماته مسرعة: نعم يا بني أنت على حق.

نظر محمود فجأة لرانيا وقال: ما رأيك أنت يا رانيا في مشكلة تعويم الجنيه المصري؟

فجأة.. ساد الصمت في الغرفة.. عيون تنظر لها.. كلهم.. ينتظرون رأيها هي! لم يسألها أحد عن رأيها من قبل.. لماذا يسألها محمود؟

التقت عيناها بعيني زوجها من جديد.. كان ينتظر هو الآخر جوابها..

لا تحب الكلام في الاقتصاد.. ولا تفهم معنى الجملة.. لا بل تفهمها.. الجنيه أصبح بلا قيمة.. أهذا ما يعني محمود؟

بلعت ريقها.. قال محمود في حماس: ما رأيك يا رانيا؟

هزت رأسها بالإيجاب: نعم مشكلة.

إبتسم زوجها نصف ابتسامة.. أيسخر منها.. لماذا يسخر منها؟ تكرهه.. ماذا يظن نفسه ليسخر منها.

قال محمود في جدية: لم تتغيري يا رانيا.. كما قلت لك.. لم تتغيري.. هادئة وخجولة.. آه.. علاء.. أخذت آخر بنت بريئة في مصر.

نظر له علاء.. نظرة ثاقبة.. ولم ينطق.

لن تنكر.. شعرت بالفخر.. أعاد لها كرامتها.. محمود أعاد لها كرامتها.

قال محمود فجأة: علاء هل تحتاج شيئاً يا علاء؟

أمسكت بطرف الكرسي الذي تجلس عليه.. تشبثت به.. في ترقب.

قال زوجها في هدوء وثقة: شكراً.. مشكلة بسيطة على وشك الانتهاء.. وأنت ما مشاريعك هنا إذن؟

صاحت رشا في حماس: علاء.. أنظر لقد إلتقطت لك صورة بالموبايل.. ما رأيك؟

- جميلة.. مبروك يا رشا.

قال محمود في حماس: لا أدري.. لا يوجد عندي مشروع بعد.. فقط أريد أن أستمتع بمصر وبأهلي وآكل ملوخية عمتي.

ضحك محمود من جديد.

أجاب علاء في تهكم: أنت عاطل إذن؟ ماذا تفعل طوال النهار ألا تشعر بالملل؟ هل ستبقى عاطلاً للأبد لمجرد أن معك بعض المال؟

شعرت بارتباك غريب.. وشعور بالذنب.. تجاه محمود.. تلاقت عيناها وعينا رشا.. ظهر على رشا الدهشة.

تجاهل محمود كلمات علاء وقال من جديد: كنت أريد أن أدعوك أنت ورانيا إلى مسرحية جديدة.. عندي تذاكر من صديق ضابط.. كلنا سنذهب معا.

قالت رانيا مسرعة: لن نستطيع.. فأحمد ورامي يستيقظان مبكراً و..

نظرت لزوجها قبل أن تكمل.. كانت تتوقع أن يؤكد كلامها.. لم ينطق.. كان ينظر إلى لا شيء.

قال شوقي فجأة: قلبي معك يا علاء.

ابتسم في فتور.

قالت في حماس: علاء.. لقد تكلمت مع المحامي اليوم.. وطمأنني.. الموضوع سينتهي في غضون أيام.. مشكلة صغيرة ..

كانت تريد أن توضح لهم أن الموضوع على وشك الانتهاء.

فتح عينيه في غضب.. والنار تقفز من عينيه.. قام وصاح في وجهها: كيف تفعلين هذا؟ كيف تذهبين دون إذني.. أجننت؟

قالت في فزع: كنت أظن..

أمسك بذراعها وقال في جفاء: لا تذهبي إلى أي مكان دون إذني فهمتِ؟

ترك ذراعها.. واتجه إلى غرفة نومه دون كلمة.

الصمت سيطر على كل شيء.. الكل ينظر لها في ذهول وفزع.

شعرت بالحرارة تسري في وجهها والإحمرار يبدو واضحاً حتى في بشرتها السمراء.

قالت والدتها في حماس: علاء متعب الآن يا رانيا تحمليه.. الظروف التي يمر بها و..

أمسكت بحقيبتها: سنذهب الآن يا رانيا.

قال محمود في ازدراء: كيف يتكلم معك هكذا؟ كيف يجرؤ.. هذا هو الطبيب الذي درس في بريطانيا!

لم تنطق.

ضحكت أختها في عصبية وأمسكت ذراع شوقي: علينا الذهاب الآن.. تأخرنا وأنا تركت ابنتي عند الجيران.

خرجا.. ركبا معا سيارة محمود.. بدا عليه التجهم طوال الطريق.

قال شوقي لزوجته: هذا هو علاء الذي "تـذليني بـه" هـل يمكننـي أن أعاملك هكذا؟

قالت وهي تطلب رقماً على الموبايل: حاول.. وسترى النتيجة..

قال محمود لعمته: لماذا يعاملها هكذا؟ هي ليست السبب في مشـكلته.. هذا إذا كان بريئاً اصلاً.. هل يضربها يا عمتي؟ هل يضربها؟ أخبريني!

قالت في حزن: أظنه فعل .. مرة ربما..

قال في فزع: كيف ترضي لابنتك بهـذا الهـوان؟ يظنهـا عبدتـه.. إنه لا يحبها.. لو كان يحبها لما عاملها هكذا.

قالت الأم في لهجة حاسمة: نصيبها يا بني.

قالت رشا: كان ملاكاً.. لا أدري ماذا حلّ به

•••

بقت في مكانها بلا حراك.. بماذا تشعر؟ لا تدري.. بالهوان ربما..

أتكرهه أم تشعر بالشفقة نحوه.. أم تحبه!

كان يسخر منها.. يظنها غبيـة.. ومحمـود.. يعتـز بهـا يقـدرها.. القدر غريب...

أخذ قلبها يخفق بشدة ولم تنطق ولم تذهب إليه.. سمعت صوت طفليها يناديها.. ذهبت لهما.. بقت معهما حتى ناما.

لم يفتح باب الحجرة ولم يناديها..

لا لا تريد أن تراه.. بعد أن أذلها.. يحتقرها.. فليتركها إذن.

فجأة.. تذكرت الدموع التي كانت تنهمـــر مـــن عينيـــه منـــذ أيـــام.. شعور غريب بالحنان طغى عليها..

لن تفكر.. تعرف ما تريد..

في صمت دخلت عليه الحجرة.. نظرت لـــه.. كالعـــادة كـــان جالســـاً على الكرسي يقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية.. يبدو كتاباً طبياً.. لم ينظر لها.

جلست على السرير قائلة: علاء.

لم يدِر وجهه عن الكتاب: نعم.

مرة أخـــرى شـــعرت بالأســـى وهـــي تنظـــر لعينيـــه الحـــزينتين.. ووجهه الشاحب

قالت في هدوء: لقد رحلوا.. لن يأتي محمود هنا مرة أخرى.

قال في حزم: لا أريد ان أتكلم في هذا الموضوع

قالت وهي تضع يدها على وجنته: تريد أن تأكل شيئاً؟

هز رأسه بالنفي ودفع بيدها بعيداً في قوة.

قالت في أسى من جديد: ما المشكلة الآن؟

قال في لامبالاة ولكن صوته كان مليئاً بالشجن: لا توجد مشكلة.

قالت في يأس: لا تطيقني.. لم تعد تطيقني.. لا تحبني أليس كذلك؟

قال في صرامة: لا.. لا أحبك.

نزلت كلماته عليها كالصاعقة قالت في ألم: لماذا؟

قام وجلس جانبها ثم قال في شيء من العصبية: لا يوجد لماذا.. في الحب لا يوجد لماذا.

قالت في أسى: حسنا.. ماذا تريد الآن؟

نظر لها برهة ثم أدار عينيه وقال: لا شيء.

قامت .. فتحت باب الحجرة وخرجت.

جلست على الأريكة.. دفنت رأسها بين يديها.. ولم تبك.. بقت ساكنة.. مهانة لم تشعر بها من قبل..

وضع رأسه على الوسادة.. أنفاسه ثقيلة.. يشعر بخنقة غريبة...

أغمض عينيه.. ثم فتحهما من جديد وصاح: رانيا!

أجابت في صوت محشرج: نعم.

قال في غيظ: ماذا تفعلين؟ لماذا لم تأت لتنامي؟

قامت في هدوء.. فتحت باب الحجرة وقالت: سأنام في حجرة الأولاد اليوم.

قال فجأة في براءة: لماذا؟

قالت في عصبية: لأنك لا تريدني.. لا تطيقني.. لا تحبني.

قال في تلقائية وهو يعتدل في جلسته: ولكنك زوجتي. يجب أن تنامي هنا.

صاحت في عصبية: لا.. لا يوجد "يجب".

قال في حزم: زوجتي تنام هنا في حجرتنا.

لم تنطق.. حملق كل منهما في الآخر.

لم تعد تدري ماذا يجري.

كانت تجلس على السرير في عصبية وهي تهتز من رأسها حتى قدميها.. مرت دقائق ربما.

من بدأ؟.. هي أم هو؟

بدآ معاً.. في تلقائية.. وجدت نفسها بين ذراعيه.

ضمها في حنان أم ضمته في حنان؟

حنان.. يأس .. أسى .. مرارة..

شعرت برأسه على صدرها.. تدفق حنانها كما لم يتدفق من قبل.. همس وهو يقترب أكثر منها.. يستمع إلى كل نفس يخرج من رئتيها.. يشعر بكل دقة من قلبها: أنا لا أحبك يا رانيا.

قالت في أسى: أعرف.

كانت تداعب خصلات شعره وكأنها تطمئنه أنها معه. بقي هكذا برهة.. ثم ابتعد عنها بعض الشيء.. نظر لوجهها.. مرر يده على وجنتيها وهمس: لا يوجد أي شيء على وجهك.. لا يوجد أحمر شفاه.. ولا حتى كحل.. لا تتجملي لي هذه الأيام.

- ولماذا أتجمل؟ عندما كنت أتجمل لم تكن تحبني.. والآن لا تحبني.. لا يوجد أمل .. لم أعد أهتم بهذا.

لامست وجهه بأصابعها وكأنها تطمئن أنه معها ثم أخذت تمرر أصابعها على وجهه.. فأغمض عينيه.. عبس وجهه.. وكأنها تمرر أصابعها على جرح.. مؤلم وطازج.

فتح عينيه.. أمسك بأصابعها التي كانت على وجنته وقبّل كفها في رقّة وهمس: لا أحبك.. لم أحبك يوماً.. أبداً..

هزت رأسها بالإيجاب.. نظر لعينيها.. رأت اللهفة في عينيه كما لم ترها من قبل وأكمل في رقة: ولكنك زوجتي.. وستبقي زوجتي.. لن أطلقك.. لا الآن ولا في أي وقت.. تريدينى أن أتركك؟

قالت في تلقائية: لا.. لا تتركني أبداً.

***

أمسكت بسجادة الصلاة.. وضعتها على الأرض وصلّت صلاة الصبح.. وضعت رأسها على الأرض وبدأت تدعو الله كعادتها: يا رب بارك لي في أولادي.. يا رب.. إجعله يعود كما كان.. لا أستطيع أن أراه هكذا.. يا رب.. رد عنه هذا الظلم.. يا رب أريده أن.. لا لا يهم.. لم أعد أهتم لو أحبني أم لا.. فقط رد عنه هذا الظلم.

جلست على كرسي.. تفكر فيه.. في رقته وقسوته.. في زوجها .. في المرارة التي تأكل قلبه..

رن جرس الهاتف .. أجابت وسط صراخ ولديها.. والدتها

- كيف حالك اليوم يا رانيا؟

- أنا بخير..

- معلهش يا بنتي.. إستحمليه.. ربنا معاك.. ربنا يفكها عليك.

- بالطبع أتحمله .. إنه زوجي.

- طوال عمرك وأنت عاقلة يا بنتي..

صمتت السيدة لدقائق ثم قالت في خوف: رانيا.. ماذا فعل أمس؟ هل.. هل أهانك يا ابنتي؟

أغمضت عينيها.. أمس.. أمس كان غريباً.. شوق إليها لم تره من قبل.. لا تدري ماذا فعل أمس.. أذابها بداخله.. أمس.. أغرقها كما يغرق القارب الصغير في البحر الثائر على الرمال والصخور.. أغرقها بموجة عالية وعنيفة.

ماذا فعل أمس؟ لماذا كل هذه اللهفة أمس؟ لن تسأل. هي معه وهذا يكفي.

قالت مسرعة: لا يا ماما.

- لا تكذبي عليّ يا رانيا.. والدك ليس هنا.. أنت تعرفين هو يقضي كل اليوم في الجامع هذه الأيام.. هرباً مني على ما أعتقد.

- أنا لا اكذب والله العظيم يا ماما لم يهني..

- تحتاجين شيئاً يا رانيا.. مال؟

- شكراً يا ماما.

بدأت تحكي لطفليها القصص.. وسمعت جرس الهاتف مرة أخرى.

أختها..

- رانيا.. أنا أتكلم معك من الموبايل الجديد.. ما رأيك.. الصوت واضح جداً أليس كذلك؟

إبتسمت: نعم واضح كيف حال شوقي؟

- بخير.. يتكلم عن مدخراته.. واستثماراته طوال الوقت.. لم يترك أحداً في كل شارعنا دون أن يخبره أن الموبايل كلفه خمسة آلاف جنيه! لن أستطيع أن أتكلم كثيراً.. فقط كنت أريد أن أسأل عليك.. ماذا جرى أمس؟ ماذا فعل بك علاء.. كنا قلقين كلنا.. هل ضربك؟

- لا يا رشا.. علاء لا يضربني.

- هل تصالحتم؟

- نعم تصالحنا.

قالت في فضول: كيف؟ ماذا فعل؟

ابتسمت رانيا قائلة: الموبايل يا رشا.. ستدفعي خمسة آلاف أخرى هكذا..

- نعم .. نعم .. عندك حق.. غداً تخبريني.. غداً.. مع السلامة.

بدأت تعد بعض الطعام لأولادها.. عندما سمعت صوت الهاتف من جديد.

أجابت.. هذه المرة كان محمود.. .

قال في صوت متأثر: رانيا.. هل تريدينني أن أتكلم معه يا رانيا.. يحتاج إلى رجل يتكلم معه ووالدك عجوز.

لطمت وجهها برفق وقالت لنفسها: يا لهوي.. يا لهوي!

قاطعته: لا أحتاج لأحد أن يتكلم معه يا محمود .. شكراً أنا بخير وسعيدة جداً مع زوجي.

قال في قوة: لماذا تتحملين كل هذا وحدك؟ إذا كان زوجك يضـــربك.. إذا كان يضربك.. فيجب أن يتكلم معه رجل عاقل.

- محمود.. بالطبع زوجي لا يضربني.. من قال لك هذا؟ علاء ملاك.. أرجوك يا محمود لا تتدخل.. تدخلك سيسبب لي المشاكل.

قال مسرعاً: كنت فقط قلقاً عليك.. أنت تستحقين كل خير.

- شكراً لا داعي للقلق.. مع السلامة.

تنفست الصعداء.. كيف كانت بهذا الحزم مع محمود؟ مـــن أيـــن لهـــا كل هذه القوة؟ لا تدري. كامنة في مكان ما بداخلها. لا.. لا تريـــد شـــيئاً يغضب زوجها.. هذه الأيام تشعر به كابنها الصـــغير.. تريـــد حمايتـــه.. تريد إسعاده.. ولا تأبه بمشاعره تجاهها.. لم تعد تهتم بهذا.

فقط تطلب من الله في كل صلاة أن يرد عنه الظلـــم.. فـــالظلم مريـــر وهي تشعر بمرارته.

***

الفصل الخامس

مرّ يومان على موضوع محمود.. اليوم زوجها يبدو مختلفاً.. سعيداً ربما.. لا تدري.. لم يتكلم عن موضوع المشاجرة بينهم مرة أخرى طوال اليومين الماضيين.. وكأن المشاجرة لم تحدث.

دخل من الباب وقت الغداء والفرح يبدو عليه.. نظرت له في فضول.. لماذا هو سعيد اليوم؟

قال وهو يجلس على مائدة الطعام: أين سندويتشات الجبنة الرومي يا رانيا؟

إبتسمت وقالت: تبدو سعيداً.

نظر لها وقال في حماس: عندي أمل.. المحامي طمأنني اليوم يا رانيا.

التقت عيونهما.. ساد الصمت برهة ثم قال في شيء من الخجل: أنا آسف يا رانيا.

لم تنطق.

قام وقال وهو يتجه إلى المطبخ: سأجهز أنا الغداء.. وأنت تجلسين هنا.. لم أكن أقصد جرحك .. لماذا دائماً نتكلم عن المشاعر؟ لا أعرف مشاعري الآن.. أحياناً أحب كل شيء.. وأحياناً أكره كل شيء.. انسي قصة الحب والكره هذه فكّري في شيء آخر.. مشكلتنا كمصريين أننا نفكر بعواطفنا.. ونقضي أياماً.. نفكر في كل الذين أحبونا.. وكل الذين كرهونا..

هزت رأسها بالإيجاب فأكمل بعد أن عاد بالخبز والجبن وجلس أمامها: كنت دوماً هادئاً.. لا أدري ماذا حل بي.. تغيرت.. الحياة هنا تغير الإنسان.. المرارة تأكل كل شيء.

قالت فجأة: أنا لا أهتم بالحب والكره.. لا أهتم..ألا ترى؟ لقد تغيرت أنا أيضاً .. أحيا في بساطة.. أكره التعقيد.. ولكن..

صمتت فجأة..

– لكن ماذا يا رانيا؟

– تتذكر هذا اليوم.. عندما زارنا محمود؟

قال في شيء من الغضب: ألم أقل لك أنا آسف.. ربما فقدت أعصابي بعض الشيء..

– لا يا علاء.. أنا لست غاضبة لأنك فقدت أعصابك.

قال في غضب وصبره بدأ ينفد: لماذا أنت غاضبة إذن؟

قالت في هدوء: لأنك تظنني غبية.. لماذا تظنني غبية يا علاء.. لو كنت تظنني غبية فلماذا تزوجتني؟

نظر لها في دهشة: أنا لا أفهم شيئاً..

– تتذكر.. عندما سألني محمود عن رأيي في موضوع الجنيه المصري.. لم أكن أدري ماذا أقول.. كنت تضحك عليّ.. تسخر مني.

قام قائلاً في عصبية: لم أكن أسخر منك يا رانيا.. كنت أسخر من الموقف.. من وجودي مع شوقي ومحمود.. من كلامهما العام.. كانا يتكلمان.. وأنا.. لا تعرفين بماذا كنت أشعر.. بمرارة.. بأنني لست جزءاً من هذا العالم.

خفق قلبها بشدة فتحت فمها فأكمل في غيظ: وماذا يهمني أنا لو كنت تفهمين في الاقتصاد أم لا .. ماذا يهمني؟ فليذهب الاقتصاد إلى الجحيم.. غبية أو ذكية.. لا أهتم بهذا الآن..

قاطعته في رجاء: أرجوك يا علاء.. إهدأ.. لقد.. اختلط عليَّ الأمر.. و..

صاح في يأس: لم يعد عندي شيء.. رانيا نحن لا نملك قوت يومنا الآن.. وربما ضاع مستقبلي إلى الأبد.. كيف سأربي أولادي..

همست من جديد: والنبي يا علاء.. لا تقل هذا.. وحياة أحمد ورامي.

جلس من جديد.. تنفس الصعداء ثم قال في هدوء وقوة: حسناً.. لا بأس.. لماذا لا نشرب شاياً معاً..

قالت مسرعة وقلبها يخفق بشدة: أنا .. أنا أجهز الشاي.

– جهزي شاياً مصرياً.. في كوب.. مع السكر وبدون حليب.

نظرت له في دهشة.. ذهبت إلى المطبخ.. تساقطت الدموع من عينيها.. سقطت دمعة في الشاي الذي يغلي على نار الموقد.

– رانيا.

مسحت دموعها مسرعة.. لو يعرف كم تحبه.. لو يشعر كم تحبه!

أمسكت بالشاي وذهبت له..

نظر إلى كوب الشاي في شك.. ثم أمسك به.. أخذ رشفة.. وقال: طعمه غريب..

إبتسمت: غريب كيف؟

- مر.. وحلو.. خليط غريب.. أتعرفين.. هذا الشاي يذكرني برائحة البحر.. عندما تختلط رائحة السمك الطازج بالسمك العفن..

نظر لها وقال: رانيا.. يوم الاثنين ستكون هناك مقابلة بيني وبين عايدة هذه.. عليّ أن أفهم لماذا فعلت هذا.. المحامي سيكون موجوداً بالطبع.. هل تريدين الحضور؟

نظرت له ولم تجب.

فأكمل: هذه قضيتك أنت أيضاً.. أتريدين أن تتكلمي معها يا رانيا؟

هزت رأسها بالإيجاب.

قال: أعرف جيداً كل شيء.. عبد الكريم يريد تدميري.. ولكني أريد أن أسمعها منها.

- لن تعترف بهذا يا علاء.

- سنرى.

***

نظرت لزوجها وهو يلعب مع ولديه في إعجاب.. عانقت نفسها وهي تقف أمام الباب.. كيف يتكلم معهما.. يضحك معهما.. يتصارع معهما.. كيف ينظران له في إعجاب.. فتح حقيبة أدواته الطبية وبدأ يعلمهما أسماء الأدوات..

تُرى.. أحُبه لولديه هو ما يجعله يعيش معها.. يعشقهما.. تَرى هذا في عينيه.. لا لن يجرحهما.. هل هذا هو سلاحها إذن.. الولدان..

راحت مع أفكارها.. حتى سمعت صوته: رانيا.. هل أنت مستعدة الآن؟

هزت رأسها بالإيجاب.

يوم الجمعة دائماً يزورون بيت حماتها.. وحماها.

أمسك زوجها بعجلة القيادة.. بدأ ولداها في الكلام المستمر.. تاهت هي مع أفكارها.. لا لم تعد تأبه بحبه.. لا.. لن تفكر في هذا.

حمل رامي.. أمسكت بيد أحمد وتسلقوا جميعاً درجات السلم.. صافحتها حماتها بحرارة.. بالطبع كان هناك محمد وسامية وأولادهما الثلاثة. دخلت مع حماتها المطبخ لتساعدها.. كعادتها.. لا تتكلم كثيراً.. وتعمل في بطء.. تكرة تقشير البطاطس.. ولكن لا يهم.. عليها أن تتقبله!

أما سامية.. فلم تتحرك من حجرة الصالون.

قالت حماتها في قلق: كيف حال علاء يا رانيا؟

إبتسمت قائلة في صوتها الهادىء: بخير يا طنط.

نظرت حولها.. ثم أخرجت بعض المال من صدرها وقالت: خذي يا رانيا.. مائة جنيه.. إياك أن تخبري علاء.. هذا بيني وبينك.

قالت في ارتباك: لا يا طنط.. شكراً

قالت السيدة في صرامة: إفعلى ما أقول يا رانيا..

أخذتهم منها في ارتباك.. في يوم مضى.. كان زوجها هو من يعطي والديه المال..

همست فاطمة في توعد: لو زعلتيه تاني.. حموتك .. فاهمة؟

هزت رأسها بالإيجاب.. ولم تتناقش مع حماتها..

أكملت حماتها في حماس: لا يوجد رجل كعلاء.. أنا لم أسامحك يا رانيا على ما فعلتيه به.. لا لم أسامحك.. تتركيه عندما كان يحتاجك..

هذه هي الزوجة الأصيلة؟ إحذري يا رانيا.. فبينما كنت أنت نائمة في بيت والديك كان هناك من تأكله اللهفة على زوجك.. رأيت اللهفة في عينيها.. زميلته هذه..

قالت رانيا في صوت بالكاد يسمع: زميلته مَن؟

إبتسمت حماتها في تهكم: چيهان أعتقد.. إسمها چيهان.. بنت زي القمر ودكتورة.. رانيا.. مش كل من تنجب ولدين.. تظن أن زوجها بين يديها.. الرجل يحب المرأة الصبورة الطيبة التي تحسن معاشرته.. وكم من رجال تركوا زوجاتهم.. بعد أن أنجبوا طفلاً واثنين وثلاثة..

تركت السكين.. إرتجفت يدها ولم تنطق.

قالت حماتها في حماس: أنا فقط أحبك وأخاف عليك.. لا تشعري بالغرور يا ابنتي.. وإلا سيهرب زوجك من بين أصابعك كالمياه.

تركت المطبخ في صمت.. أخذت نفساً عميقاً.. كانت تتوقع كلمات عتاب من حماتها.. تنتظر الكلمات.. وكعادتها كانت ستتحملهم في صبر.. ولكن.. اليوم.. لا.. چيهان.. جاءت.. زارته.. اللهفة في عينيها.. حماتها تهددها..

فلتذهب إليه الآن.. تصفعه.. تصرخ في وجهه.. تتركه.. تخبره أنها لا تريده.. فليذهب إلى الجحيم هو وعائلته..

همست حماتها: رانيا.. لا تغضبي مني .. أنا فقط أعطيك نصيحة.. أنا مثل أمك يا رانيا.

هزت رأسها بالإيجاب.

جلست على مائدة الطعام.. والكلمات مختنقة في حلقها.. نظرت إلى سامية.. ملامحها الرقيقة.. ضئيلة.. ونحيفة.. وصوتها رفيع كعواء القطة الصغيرة.. كانت تتكلم بدلال..: محمد.. ماذا سنفعل هذا الصيف؟ لقد مللت الساحل الشمالي.. كم أتمنى أن أذهب إلى أوروبا.. علاء.. هل يمكن أن تساعدنا في الذهاب إلى بريطانيا؟ أخشى أن أفقد إنجليزيتي بوجودي هنا.. أحتاج أن أسافر..إلى بلد الإنجليز. علاء.. أنت لا تعرف كم أعاني هنا.. في المدرسة التي أعمل بها.. يتكلمون إنجليزية غريبة..

نظرت إلى رانيا قائلة: ألم تتعلمي الإنجليزية بعد يا رانيا؟ كيف تذاكرين للأولاد؟

لم تجب.. لم يكن يسمع هو كلمات سامية. نظر لزوجته.. أطال نظره إليها.. كان يرى الشجن الذي يظلل عينيها..ماذا بها؟ توقع أن تكون والدته قالت بعض الكلمات.. يعرف أنها ستفعل.. ولا يستطيع أن يتحكم في هذا.. شيء آخر لا يستطيع التحكم فيه في هذا البلد!

بعد الغداء.. رأى زوجته تتجه إلى دورة المياه لتغسل أيدي رامي وأحمد.. كانت تغسلهما في عصبية.. قال في رقة: رانيا..

أجابت في شيء من العصبية: نعم.

- أنا أعرف أن أمي تحدثت معك.. هل قالت لك شيئاً أغضبك؟

نظرت له.. كانت عيناها مليئة بالغيظ.. ثم أجابت في جفاء: لا.

- ماذا بك إذن؟

فتحت فمها.. فالتصرخ في وجهه.. فالتصفعه.. تتمناها الآن.. لا تتمنى غيرها.. تكرهه.. ستصفعه وتصرخ في وجهه انها لا تريده..

أغمضت عينيها.. لاحت بذاكرتها لحظات.. منذ أيام.. عندما ألقى زوجها برأسه على صدرها وكأنه ابنها الصغير.. كان يحتاجها.. كانت تعرف هذا..

- رانيا.

قالت في مرارة: لا يوجد مشكلة يا علاء.

نظر لها من جديد.. ثم قال: سأذهب مع محمد للقهوة.. لن أتأخر.. نصف ساعة.. هل تريدين أن تنتظريني هنا؟

- هل تريدني أن أنتظرك هنا؟

هز رأسه بالإيجاب.

جلست على الأريكة في هدوء.. ألقت بيديها على ركبتيها في استسلام.. ولم تنطق.

طوال الطريق ومحمود يلعن زوجته ويسب زوجته: الله يخرب بيت النسوان وسنينهم.. ولاد كلب..

قاطعه علاء وهو يجلس على الكرسي الخشبي القديم: أحتاج إلى عمل مؤقت يا محمد.

نظر له أخوه في دهشة.. ثم قال في ارتباك: تحتاج إلى المال؟

- بالطبع أحتاج إلى المال.. في شركتك أيوجد أي عمل مؤقت؟

- سأبحث لك عن شيء يا أخي.. ماذا تريد أن تشرب؟

- شاي مصري.

نظر له أخوه في حيرة: من علمك هذا؟

إبتسم: رانيا بالطبع.

- إياك أن تصبح مثلي.. في البداية ستعلمك كيف تشرب الشاي.. ثم كيف تعيش.. وكيف تتكلم وتأكل وتشرب.. آه.. يوماً ما سأرتاح من كل هذا الهم!

- كيف؟

- معجزة من السماء..

قال علاء في سخرية: تنتظر معجزة؟

- بالطبع ستأتي المعجزة.

***

اقترب منه أخوه وهمس: ماذا فعلت بك زوجتك يا أخي؟

- معذرة ماذا قلت؟

- سحرت لك؟ أمي تظن أنها سحرت لك حتى تعود إليها. نفس الشئ الذي استعملته زوجتي معي، هذا ما تقوله أمي. ربما سامية أخبرت رانيا بإسم شيخ مثلاً أو ربما علمتها كيف تتصرف معك.. هذا كلام أمي.. في الحقيقة أنا لا أظن سامية تطيق رانيا أصلاً ولكن لأمي..

قاطعه علاء في ضيق: هل يوجد شيء آخر تتكلمون عليه طوال اليوم غيري.. في كل مصر لا يوجد غيري.. أنا وقضيتي وزوجتي ومشاعري؟

إبتسم أخوه: الآن على الأقل أنت أهم شخص في هذه العائلة.

وضع علاء أطفاله في السيارة.. زوجته وجهها متجهم.. في السيارة نظر لها من جديد وقال: رانيا.. هل رأيت سامية اليوم؟ كلما أتذكر ما قلتيه عليها.. لا أستطيع أن أسيطر على ضحكاتي.

لم تجب.. كانت تفكر.. ستصرخ في وجهه.. ستخبره أنه لو أراد جيهان فليذهب لها.. هي لا تريده.. ستقول "طز في عيلتك".. لن تتحمل غرور أهله أكثر من هذا..

نظرت له.. الحزن لم يزل يظلل عينيه..

لم تقل شيئاً.

قال وكأنه يقرأ أفكارها: لا تغضبي من أمي يا رانيا.. هي محبطة وخائفة هذه الأيام.. وهي تحبك ولكنها قلقة على مستقبلي.

قالت مسرعة وعقلها لم يعد يفكر: أنا لست غاضبة منها يا علاء.. ولكن هل.. هل رأيت وقاحة زوجة أخيك..

•••

ثم أكملت وهي تقلدها: لماذا لا تتعلمين الإنجليزية؟.. ولماذا لا تتعلم هي كيف تصبح إنسانة أصلاً.. إنها.. ماذا أقول.. أستغفر الله العظيم..

إبتسم: نعم يا رانيا.. هي وقحة.

– مغرورة.. الغرور فظيع..

نظرت لزوجها وهي تحاول أن تسيطر على نفسها ثم قالت في صوت هاديء: الغرور فظيع.. أليس كذلك يا علاء؟

نظر لها لثوان ثم قال: نعم فظيع.

أخذت تهز أرجلها في عصبية ثم قالت: مثلاً.. أنت ..

– أنا؟ مغرور؟

شعرت بارتباك وشيء من الخجل.. نعم مغرور.. وعائلته.. و..

قالت في أسى: لا!

- رانيا.. لقد وجدت عملاً مسائياً في شركة محمد.. سيتكلم مع مديره غداً.. سأراجع بعض الحسابات وأشياء من هذا القبيل.

نظرت له.. في أسى وهمست: علاء..

- نعم.

- لماذا تريد هذا العمل؟

قال في تهكم: تعرفين السبب جيداً.

- عندي بعض المال.. نعم.. كنت أدخر بعض المال.

رمقها بنظرة سريعة.. وكأنه لا يصدق ما تقول ثم قال: لن يكفي.. الله يعلم متى ستنتهي تلك المحنة.. وحتى تنتهي علينا أن نعيش.

هزت رأسها بالإيجاب.

***

شعرت بتوتر هائل من هذه الزيارة إلى مكتب المحامي لتقابل عايدة.. إرتدت فستانها الأزرق الحرير وحجابها الأبيض الحرير.. نظرت لنفسها في المرآة.. عليها أن تبدو جميلة اليوم..

جلست بجانب زوجها في السيارة في صمت.. وهو لم يحاول أن يتكلم.

وصلا عند المحامي..

جلسا في انتظار عايدة.

فتحت عايدة الباب ودخلت.

تفحصتها رانيا أكثر مما تتفحص السمك قبل شرائه.. عيناها صغيرتان مستديرتان.. شفتاها ممتلئتان.. وجهها يبدو جميلاً.. وصغر سنها يضفي عليها جمالاً أكثر.. كانت قصيرة ونحيفة..

قال المحامي : الدكتور علاء يريد التحدث معك يا عايدة.

نظرت له.. ثم لعلاء.. ثم لرانيا ولم تنطق..

بدا علاء هادئاً قوياً وكأنه في لحظة نسي كل شيء وعاد أستاذ الجامعة القوي.

قال في هدوء: عايدة.. هل تريدين التحدث معي على انفراد؟

نظرت له.. أطالت نظرها له.. ثم قالت: ربما.. لا أدري.. أخاف منك.

قال في صرامة: لا.. لا تخافين مني.. فأنت لا تعرفينني أصلاً.

رانيا نظرت لعايدة في صمت.

قام المحامي.. قامت زوجته.. خرجا في هدوء وأغلقا الباب.

القلق بدأ يتسرب إلى قلب رانيا.

جلس أمام الفتاة ثم قال: لماذا فعلت هذا؟

نظرت حولها في حذر ثم قالت: لم أفعل شيئاً.

قال في قوة: لا تخافي .. لا يسمعنا أحد.. ماذا تريدين مني؟ لماذا تريدين تحطيمي؟ مَن أنتِ؟

قالت في اضطراب: لماذا تتحرش بي؟

لم يجب.. حملق فيها برهة ثم قال: لقد جئت اليوم.. لماذا جئت اليوم يا عايدة؟ لأنك تريدين شيئاً.. عبد الكريم طلب منك هذا؟ هددك بالرسوب؟ هل أنت غاضبة مني لأنك رسبت العام الماضي؟

قالت في نفس الاضطراب: لو رسبت هذا العام سيطردوني من الجامعة.. كان أملي أن أكون طبيبة.

- لماذا لم تلجئي إليّ؟ كنت سأساعدك.

- لجأت إليك.

- لا أتذكر..

- أعطيتني بعض المراجع و.. أنا أريد أن أنجح.

- لو قلت الحقيقة..

قالت فجأة في ثقة: لو قلت الحقيقة ستخرج أنت براءة من القضية ويحاكم عبد الكريم وسوف تنجحني؟

قال في حزم: سوف أساعدك على النجاح.

قالت في لامبالاة وهي ترفع كتفيها: حسنا.

لم يكن يتوقع انتصاراً بهذه السهولة.

- ستقولين الحقيقة يا عايدة؟

- نعم سأقول الحقيقة.. ولكن ربما أفقد مستقبلي.. سأحاكم.

- لا لن تفقدي مستقبلك.. كنت تحت تهديد وابتزاز عبد الكريم.. حاول ابتزازك يا عايدة؟

قالت في مرارة: حاول ابتزازي.. رجل قذر.. أنت تعرف أنه رجل قذر.. لماذا لم تساعدني؟

قال في رقة: كيف؟ لم تخبريني بشيء.. أسمع أنه أحياناً يغازل الطالبات.. ولكن لم تشتك منه طالبة واحدة.. كيف لي أن أساعدك وأنا لا أعرف شيئاً؟

- لا يشتكون لأنهم يخافونه.

قال وهو يبتسم: سأساعدك..

قالت في صوت خافت: ساعدني إذن.. دكتور علاء.. إنك لا تعـرف شيئاً.. هذا العجوز القذر.. يداه لم تزل تحرق جسدي.

قال في ثقة: سأساعدك يا عايدة .. أعدك.

نظرت لعينيه وهمست: تزوجني إذن!! تريـدني أن أقـول الحقيقـة.. تزوجني!

فتح فمه في ذهول.. لم يكن يتوقع هذا أبداً.

قال وهو يحاول السيطرة على أعصابه: أنا متزوج يا عايدة.. رأيـت زوجتي.. وأنت صغيرة.. عمري ضعف عمرك يا عايدة تحتاجين رجـلاً في مثل سنك وتحتاجين التركيز في مستقبلك حتى تصبحي طبيبة كبيرة.

قالت في قوة: أنت مستقبلي.. تزوجني وسوف أعترف بالحقيقة.

قال في هدوء: لا أستطيع.

همست في رجاء: لماذا؟

-لأني متزوج يا عايدة.. وهذه ليست الطريقة المثلى للزواج سـتجدين من يحبك ويقدر ظروفك.

- لو عرفتني ستحبني.. وأنا أحبك .. أحبك منذ زمن.. إنك لي الآن.. لن أتركك.

نظر لها برهة ثم قال في هدوء: هل تخافين الفضيحة.. ألهذا تريـدين الزواج؟

– لا.. لا أخاف شيئاً.. فقط أحبك.. ألا ترى، يمكنني أن أقول الحقيقة وربما أرغم عبد الكريم بالزواج مني ولكني أريدك أنت.

ساد الصمت برهة ثم قال:

– فلنتقابل مرة أخرى يا عايدة ونتناقش في هذا الموضوع ما رأيك؟

نظرت له في شك ثم قالت: كيف أثق بك؟

– كما أثق أنا بك

خرجت في بطء.. دخل المحامي ومعه رانيا.

قال المحامي: ماذا قلت لها؟ هل ستتنازل؟

نظر لزوجته ثم قال وهو يقوم: سأتكلم معك بعدين.. هيا يا رانيا.

لم ينطق طوال الطريق.. الفضول يسيطر على كل قطعة فيها.. ماذا دار بينهما..

عندما دخلا البيت قالت في صوت قوي: ماذا تريد عايدة يا علاء؟

قال في هدوء: تريدني أنا يا رانيا.. تريد الزواج.. أتصدقين هذا؟

إبتسم في تهكم: تريد أن تتزوج بي.. تفعل كل هذا لتتزوجني. إذا كانت قادرة على كل هذا قبل الزواج على ماذا تقدر بعد الزواج.. مجنونة!

قالت زوجته في لهجة حادة: ماذا قلت لها؟

– لا شيء.. لم أقل شيئاً.. رقبتي بين يديها.

صاحت في عصبية: رقبة مَن؟ ما هذا الهراء؟ علاء.. لو فكرت في هذا.. مجرد تفكير..

قاطعها في حزم: لن أفكر في هذا يا رانيا.. ولكن عليَّ أن أفكر بهـــدوء في طريقة لاقناعها بالعدول عن هذه الفكرة.

قالت في قوة: لن تراها مرة أخرى.

- عليَّ أن أراها يا رانيا.

- لن تراها.. سأترك البيت .. سأفعل.. فلتفقد وظيفتـــك.. مســـتقبلك.. ولكن لن تقابل هذه الفتاة مرة أخرى.

نظر لها من جديد.. مرة أخرى تبدو مختلفـــة.. قويـــة .. مســـتهترة.. نعم تبدو جريئة ومستهترة!

قال في فضول: لا يهمك مستقبلي؟

- فليذهب مستقبلك إلى الجحيم.

- من أين سنعيش؟

- لنا رب يساعدنا.. ستكسب القضية دون مســـاعدة هـــذه العـــاهرة.. أتسمع ما أقول؟.. لو قابلتها مرة أخرى..

نفخ في غيظ: تجعليني أندم على أني أخبرتـــك.. رانيـــا فقـــط أريـــد أن أحاول إقناعها.

نظرت له ثم قالت في ازدراء: هذا ما ينقصنا.. هذه العاهرة!

***

فتحت والدتها الباب فألقت رانيا بنفسها بين ذراعيها.. كانت تشم رائحة الباذنجان المقلي بالخل والثوم.. رائحته.. هي رائحة طفولتها وصـــباها.. والآن تحتاج إلى الطفولة والصبا.. تشعر براحة غريبة كلما طبخت والدتها الباذنجان.. طعم الخل يلسع فمها والثوم يحرق لسانها.. ولكنه لذيذ..

اليوم تشعر بالخوف والأسى..

جلست وسط والديها.

والدها يسبح بسبحته القديمة ويجلس القرفصاء في وسط الأريكة.

والدتها تمسح عرقها بمنديل ورقي.. ورشا تـتفحص الموبايــل وسـط صراخ طفلتها..

قال والدها بصوته المبحوح: كيف حالك يا رانيا؟

قالت في هدوء: بخير يا بابا.

تفحصت أمها وجهها ثم قالت: تشاجرت معه مرة أخرى؟

هزت رأسها بالنفي.

- ماذا جرى يا رانيا؟

قالت وصوتها مليء بالدموع: لا شيء.

أمسكت والدتها بيدها وجرتها إلى المطبخ وقالـت: يجـب أن تـأكلي الباذنجان الذي تحبيه وتحكي لي ما جرى.. لا تكتمي في نفسك يا ابنتي..

قالت في أسى: والدته.. كالعادة.. "سممت بدني"

قالت والدتها: معلهش يا رانيا ست كبيرة.

- لا.. قالت إن جيهان هذه جاءت وزارت علاء.

قالت الأم وهي تجهز طبق الباذنجان: جيهان الطبيبة التي؟؟...

- نعم.

هنا دخلت رشا المطـبخ القـديم الصـغير وهـي تمسـك الموبايـل: حماتك تهددك؟

هزت رأسها بالإيجاب.

قالت رشا في امتعاض: لماذا كل هذا الغرور.. هو إللي خلق علاء مخلقش غيره.. رانيا، هل تعرفين صفاء أخت محمود؟ طُلقت من زوجها.

قالت رانيا مسرعة: الله أكبر.. متقوليش في وشي يا رشا.

– يا رانيا إستمعي لبقية القصة.. كانت مصممة على الطلاق.. لا أحد يعرف لماذا.. وما أن انتهت شهور العدة حتى تزوجت مهندساً زي القمر.. أظن.. كان بينهما.. شيء.. أستغفر الله.. أنا لسة مصلية ولكن الصدفة غريبة..

قالت رانيا: ولكن ما علاقتي أنا بهذه القصة؟ أنا لا أستطيع لن أحيا بدون علاء.

– يا عبيطة.. إتقلي عليه..

– لا.. أنه يحتاجني.

– هو يعرف كم تحبينه.. لذا يستغل حبك..

– ومصيبة أخرى..

نظرت لها أمها في فزع: ماذا جرى.. علاء الذي كنت أظنه ملاكاً.. شيطان هو وأهله.

– البنت التي تتهمه بهذه التهمة.. تريد الزواج منه!

شهقت أمها في فزع.

إنطلقت ضحكة من أختها ثم قالت: تريد الزواج من علاء! أهذا ما تريد؟ يا إلهي!

أجابت رانيا في حزن: ما المضحك في هذا؟

– ألم أقل لك من قبل الرجال "شحيحة" في مصر الآن.. كل من لديها رجل تمسك فيه بإيدها وأسنانها؟

قالت رانيا في حيرة: ماذا أفعل؟

قالت رشا: لا شيء.. لا تفعلين شيئاً.. لن يتزوجها بالطبع.. علاء عاقل.. أقصد كان عاقلاً.. بدأت أرى علامات الجنون عليه مؤخراً.. ماذا يقلقك؟ ظننتك لا تأبهين به.. الآن أنظري إلى وجهك.. لا تتجملين.. لا ترتدين ملابس جميلة.. لا تطبخين.. لا تفكرين قبل أن تتكلمي.. لو كنت من زوجك كنت فعلت الكثير.

نعم لم تعد تأبه بشيء.. أي شيء.. لماذا كل هذه الحروب تريد أن تعيش في سلام.. بلا حروب.. هل أصبح السلام عملة نادرة هذه الأيام.. تريد أن تحيا حياتها كما تريد.

سمعت رشا صوت الموبايل يرن فأجابت: أهلاً يا صفاء.. ألف مبروك.. حمدا لله أنك تخلصت من زوجك هذا كان رجلاً لا يطاق كلنا فرحون من أجلك يا صفاء.. إحكي لي عن العريس..

نظرت رشا لأمها في تهكم وبدأت تسمع القصة من صفاء.

ثم خرجت رانيا وتركت المطبخ.

ربّتت أمها على يدها: إصبرى يا ابنتي.. إصبري!

عادت إلى البيت.. نام الأطفال..

تمددت على الأريكة..أمسكت بقصة رومانسية وبدأت تقرأها.. لا تحب النهايات التعيسة.. ربما جيهان تحبه.. نعم جيهان تحبه.. هي تقف في طريقهما.. ولن تضحي.. كيف تضحي بحياتها؟؟

ولكن.. هذه الأيام.. زوجها مختلف.. عندما يأخذها بين ذراعيه.. تشعر به مختلفاً.. ربما.. لا تدري.. ليس رقيقاً معها كما كان.. قليل الصبر.. سريع الغضب..

وأمسك بالكتاب من يدها.. كيف لم تشعر به وهو يدخل.

نظر إلى الكتاب قائلاً: ماذا تقرأين؟

قالت في جفاء: رواية.

نظر لها في دهشة وهو يجلس على الأريكة: ما المشكلة الآن؟

قالت في نفس الجفاء: لا توجد مشكلة.

- غاضبة مني لماذا؟ لم أفعل شيئاً.. رانيا.. لا تصعّبي حياتي أكثر من ذلك.

- لا أريد أن أصعّبها.

نظر لها.. لشعرها المتناثر حول وجهها.. لفستانها القديم..

لوجهها المصري.. مصرية.. كل شيء بها مصري.. مختلفة عن جيهان.. جيهان ليست مصرية.. جيهان كانت صريحة.. مباشرة.. كانت متفرجة على الأحداث التي تدور حولها.. كانت تشرب الشاي بالحليب.. جيهان كانت مثله.. ربما تعاطف معها لأنها مثله.. رانيا.. لا..

إبتسم قائلاً في حنان: أنت جميلة اليوم.

نظرت له ثم قالت في سخرية: حقاً؟.. لم ألاحظ هذا.

قال في صرامة: ولكني أنا ألاحظ.

إقترب منها.. وضع يده على يدها التي تمسك بالكتاب.

نظر إلى الكتاب ثم قال: عما تحكي تلك القصة؟

قالت في لامبالاة: لا أريد أن أحكيها.. لا أريد أن أتكلم.. لماذا أتكلم وأنا لا أريد أن أتكلم؟

قام قائلاً: حسناً.. تصبحين على خير.

قالت في شيء من الحنان.. شيء من الندم: وأنت من أهله... علاء؟

أدار وجهه نظر لها مرة أخرى: نعم.

- لا شيء.

إبتسم ودخل الحجرة وأغلق الباب.

تمتمت في ندم: الله يخرب بيتك يا رشا.. وبيت نصايحك.. قال إتقلي قال!

***

أغمض عينيه.. لم ينم.. كان يشعر بحيرة غريبة.. لا يفهم.. لماذا كانت تتظاهر بالغباء والسذاجة؟ كل هذه الفراسة في زوجته.. كل هذه الحياة.. كل هذا الذكاء..

طوال الوقت كانت تعرف مشاعره تجاه چيهان..

كل تلك القوة!

كل تلك الخبرة الفطرية!

لا يدري.. هل استطاعت أن تخدعه طوال هذه السنوات بنظرة عينيها الممتلئة بالبراءة والسذاجة؟

عيناها كانت دوما تطلب منه المزيد.. وكأنها تستجديه: علمني كل شيء.. ولو لم تكن تريد تعليمي.. لا بأس..

كل استسلامها.. صبرها.. هدوئها.. كان تمثيلاً!

كل شيء تناثر كالشظايا في لحظات.. ولم يبق سوى هذه المرأة ذات الشعر المتناثر.. والملامح الباهتة.. والقوة الغريبة.

عيناها بها تحدٍ لم يره من قبل.. أبداً.

إبتسم وراح في نوم عميق.

***

جلس كعادته على القهوة في الإبراهيمية.. يدخن سيجارته ويستنشق الروائح المختلفة.. كل يوم رائحة جديدة.. اليوم رائحة الفول السوداني المحمص ممزوجة برائحة الثوم والكبدة الإسكندراني المقلية في الزيت الرديء وذرات الرمال المتناثرة في الهواء.

الترام.. يتوقف في عشوائية.. وما أن يتوقف حتى يتحرك الناس بسرعة فائقة وكأن هذا هو يوم الحشر.. بعضهم يعبر الشارع بسرعة فائقة.. والسيارات تتوقف في اللحظات الأخيرة.. بعضهم يحشر نفسه داخل الترام المزدحم.. بعضهم يتسلق السور ليعبر للشارع المقابل.. أناس وأناس...

تمتزج الروائح.. وتمتزج المشاعر.. ولا يدري أين الحب وأين الكره.. أين الألم وأين النشوة...

أمسك بكوب الشاي الصغير.. نظر له.. أطال نظره له.. يذكره بزوجته..

ماذا يريد؟ ماذا يتوقع؟

لا بأس.. ستنتهي تلك المشكلة.. ثم.. ثم ماذا؟.. يرحل؟.. لن يبقى هنا.

وجيهان؟.. ورانيا؟ ومشاعره المختلطة؟

ما هي مشاعره تجاه زوجته الآن؟ ما هي؟

لماذا لا يسأل نفسه؟

منذ ذلك اليوم الذي صرخت في وجهه أنهــا تحــب رجــلاً آخــر.. وصفعها، تحطم كل شئ..

يشعر بهذا.. شئ تحطم.. الاحترام بينهما ربما.. وشيء آخر..

الأقنعة التي كان كل منهما يرتديها.. الحــواجز بينهمــا.. المســرحية التي كان يحفظ كل منهما دوره فيها بضمير.

في هذا اليوم الذي جاءت له في بيت والديه.. ونــام بــين ذراعيهــا.. غوته.. زوجته البريئة غوته. وجيهان لم تفلح في إغوائه.

لماذا؟

لا يدري.. قدر ربما.. كان يحتــاجها هي بالذات.. وهــي زوجتــه.. وهو لا يفعل الفاحشة مع زوجته..

غمرته واغتصبته كما غوى الثور أوروبا في تمثال صباه.

في البداية.. كان بينهما احترام.. تقدير وامتنان.

لم يكن يحبها.. لم تؤلمه.. ولم تشعره بالنشوة.

الآن.. كل شيء مختــلف.. الآن لا يقدرهــا.. لا يشعر بالامتنــــان ولا الاحترام.

الآن أحياناً يشعر بالكره.. أحياناً بالحب.. يود أن يؤلمهــا يســعدها.. آلمته.. صفعته..

ولكنها مختلفة..

حيّة.. تنبض بالحياة.. تلقائية.. ومندفعة!

هي مختلفة عن چيهان.

لماذا؟

لا يدري.. بداخلها عنف.. غل.. حنان.. حب.. كره..

لا يدري ماذا يشعر تجاهها؟

فقط أحياناً يريد أن يذيبها بين أضلعه.

كان يريد هذا يوم جاءت إلى بيت والديه.. وكثيــراً مـــا يريـــد هـــذا هذه الأيام.

وجوده معها يشعره براحة غريبة.. وينغز قلبه.. يدفع به إلى الحياة.

من هي رانيا؟

لا يدري.. هي له على كل حال!

هي كل أخطائه وكل خطاياه.

هي كل ما يحتاج وكل ما يريد.

والآن.. الآن يريد أن يجري معها على شاطيء البحر.. على الرمال.. يريد أن يغطس معها في مياه البحر الدافئة.

يريد أن يضحك معها.. يبكي معها.. يكوّن نفسه معهـــا.. لا يرتـــدي أي قناع.

نظر إلى البقالة الصغيرة.. وضع جنيهاً على الطاولة وقـــام.. إبتســـم لنفسه وهو ينظر للافتة على محل البقالة: "المحمول خمسين قرشاً فقط!"

أمسك بالتليفون.. طلب رقم تليفون بيته.. أجابت.. قال في حماس: رانيا

- نعم.

- إذهبي لأمك الآن بالأطفال.. سوف آتي لآخذك.. أريد أن أذهب معك إلى مكان ما.

سار في حماس إلى بيت والديها في سيدي جابر.

نظرت له في قلق: هل هناك مشكلة يا علاء؟

إبتسم قائلاً: لا يوجد سوى المشكلة الكبيرة التي أنا فيها وبما أنها ستبقى بعض الوقت لماذا لا نسير سوياً على الشاطيء؟

نظرت له.. طوال الطريق وهي تنظر له.. لملامحه الشامخة.. لوجهه الممتليء بالكرامة.. في الماضي.. كانت تنظر له كملك لا تستطيع الاقتراب منه.

والآن؟

الآن هو لها.. ربما ليس لها للأبد ولكنه لها.. الملك فقد عرشه وخرج إلى العامة!

إبتسمت.. ضحكت وضحكت في تلقائية.

نظر لها وهو يستنشق الهواء وقال: أخبريني.. ما رائحة البحر اليوم؟..

أخذت نفساً عميقاً.. فكرت بعض الشيء.. نظرت للأمواج.. وقالت: ملح طازج ومنعش.

رفع حاجبيه: فقط؟

فكرت من جديد وهمست: وشيء آخر..

قال في حماس: نعم ما هو هذا الشيء؟

- طماطم!

خرجت منه ضحكة.. .

- طماطم يا رانيا؟

قالت مؤكدة: نعم طماطم ناضجة..

- أظنها من البامية التي تصنعها صاحبة البيت المقابل لنا.

- لا يا علاء.. هي من البحر.. كيف نتأكد؟

- أنا عندي فكرة.. نؤجر مركباً في الميناء ونستنشق رائحة البحر.. ما رأيك؟

قالت في حماس : نعم.

دخلا المركب الخشبية الصغيرة.. بدأ طفل صغير في تحريك المجداف بحرفية شديدة.

قال علاء بعد دقائق: رائحة اليوم هي رائحة الملح المنعشة ممزوجة بشحم السفن والبترول..

ثم أكمل وهو ينظر لها: لم أسألك يوماً.. هل تتقنين السباحة؟

قالت في تلقائية: لا.. بالطبع لا.. لماذا أتقنها؟

قال: لماذا؟ لأنها جميلة.. عليك أن تتعلمي السباحة.

- وأنت؟

- أعشق السباحة.. لم يكن لدي وقت لها.

نظر إلى وجهها الأسمر في ضوء الشمس وهمس: ألا تخشين أن يسمر وجهك؟

هزت رأسها بالنفي.

– لماذا؟

– ماذا تقصد؟

– لماذا كل هذا التغيير؟

– سئمت الانتظار.

– إنتظار ماذا؟

– إنتظار حبك.. كنت أدعو الله كل يوم.. طوال السنوات الماضية أن تحبني.. لم تحبني.. لماذا أحاول أكثر من هذا.. قررت أن أتوقف عن الانتظار.

قال وهو يحملق في عينيها: وما هوالحب بالنسبة لكِ؟ أليس ما كنت ·أشعر به تجاهك حباً؟

قالت في بديهية: لا ليس حباً.. ما كنت تشعر به تجاه چيهان كان حباً.

قال في دهشة: كيف تتكلمين بلامبالاة عن شيء كهذا.. ألا تشعرين بالغيرة؟

إبتسمت في تهكّم: تعذبت أياماً وليالي وأنا أرى الاشتياق لها في عينيك.. لماذا يا علاء.. لماذا لم تُشبِع اشتياقك؟

نظر لها ولم ينطق.

قالت في قوة: هذا هو الحب.

حملق فيها من جديد.. التقت عيونهما.. وضع يده على يدها.. ضغط على يدها في قوة وهمس في رقة: أمازلت ترين الاشتياق لچيهان في عيني؟

أحاطت يده بيدها الأُخرى وقالت: لم أعد أبحث عنه.

قال في فضول: لماذا؟

- لم أعد أبالي.

- ماذا تقصدين بـــ "لم أعد أبالي"؟

قالت وصبرها بدأ ينفد: فلتشتاق إليها.. لم أعد أبالي.

إقترب منها وهمس في رقة: كاذبة!

قالت في غضب: لا أكذب.

قال في تلقائية: أنت لا ترين الاشـــتياق لجيهـــان فـــي عينـــي لأنـــي لا أشتاق لها.. أشتاق لك أنت فقط!

فتحت عينيها.. رفعت حاجبيها.. شعرت بـــالعرق يتصـــبب منهـــا.. لابد أنها لم تسمع ما قال.. أيكذب؟ أكان يكـــذب؟ لا.. هـــي تعـــرف أنـــه لا يكذب.

قالت وهي ترتجف: علاء.. لماذا.. لماذا تشتاق لي؟

قال في تلقائية: لا أدري.

صرخت وهي تقف في المركب الصغير: تحبني؟ إنك تحبنـــي أنـــا.. أحببتني إذن.. أليس كذلك؟ استجاب الله لدعائي.. علاء!

ظهرت الدموع في عينيها.

قالت للطفل بصوت مرتعش: عد بنا إلى الشاطيء.

لم ينطق ولم تنطق هي..

ما إن عادت إلى الشاطيء حتى ألقت بجسدها على الرمال وهي تلهث وكأنها جرت أميالاً.

تساقطت الدموع من عينيها في صمت ووجهها باسماً ثم قالت:

- لماذا الآن؟

قال وهو يجلس بجانبها: لا أستطيع الرد على أسئلتك.. لماذا الآن؟ لا أدري.. ربما لأنك فقدت الأمل وتوقفت عن المحاولة.. ربما لأنك خلعتي القناع وأصبحت نفسك.. لا أدري..

نظرت لعينيه من جديد.. ها هو حلم عمرها.. يصبح حقيقة في دقائق.

علاء..

يحبها..

لم ينطقها.. لا يهم.. لا تريده أن ينطقها.. كان يقولها كثيراً في الماضي ولم تكن تعني شيئاً.. كانت مجرد امتنان.

الآن.. لا تريده أن يقولها.

نظر لها وابتسم: هل أنت سعيدة الآن يا رانيا؟ الآن أنت سعيدة؟

هزت رأسها بالإيجاب والدموع تنهمر من عينيها.. مسحتهما بسرعة.. وكلما مسحتها.. كلما تساقطت أكثر..

قال في حزن: لماذا تبكين إذن؟

لم تنطق.. هزت رأسها بالنفي وحاولت أن تتكلم فلم تستطع..

أمسك بيدها وهمس: كل هذا الألم بداخلك.. بسببي..

قالت بصوت متحشرج: لا يوجد ألم الآن يا علاء.

نظر لها من جديد.. للدموع التي تتساقط من عينيها.. ما كان يشعر به تجاه چيهان.. مختلف عما يشعر به تجاه رانيا..

حبه لچيهان.. كان هادئاً.. عاقلاً.. حتى اشتياقه لها كان يتحكم فيه.. أما حبه لرانيا.. فمختلف.. به عنف غريب.. أحياناً يود أن يجرحها..

أحياناً لا يأبه بها.. أحياناً يريد أن يمزقها بين أضلعه.. حبه لهـا يحـرك كل قطعة منه.. يتملكه.. يدفع به وكأنه ريح عاتية تدفع برجل إلى حـائط حجري.. فيلتطم به ولا يموت..

قال وهو يتنهد: الآن نتشاجر أكثر بكثير من الماضي.. فـي الماضـي لم نتشاجر أبداً.

هزت رأسها بالإيجاب.. وهي تنظر له.. نظرة كلها حب.. توقان..

قال في هدوء: ولكن لا أعرف ماذا سيحدث.. ربما ينتهي بـي الأمـر إلى السجن يا رانيا.. ماذا ستفعلين؟

قالت في فزع: بعد الشر.. سينتهي هذا الموضوع.. أنا أعـرف أنـه سينتهي.. أيام وينتهي.. وعندما ينتهي..

- أريد أن أرحل من هنا.. هل ستأتين معي؟

- بالطبع سآتي معك.. كيف تسأل.. حياتي معك.. حياتي أنت.

***

دقت باب والديها لتأخذ أولادها.. لم تشعر بهذه الفرحـة مـن قبـل.. أبداً أبداً..

شعور غريب بالرضا عن حياتها لأول مرة.. وكأنها لـم تـزل فـي سن المراهقة.. تحب رجلاً حباً عنيفاً.. بكل قطعة من قلبها..

نظرت لها والدتها.. أطـالت نظرهـا لها وقـالت: معلهش يا بنتي.. يا عيني عليك يا بنتي.. الرجل مجنون.. الرجل الذي لم تكن تخرج منـه العيبة.. فقد عقله..

لم تجب.. حاولت السيطرة على ابتسامتها.. قالت أمها من جديد: يا رب يرجعه زي ما كان يا رانيا.. يا رب علاء ابن فاطمة يرجع زي ما كان.

قالت مسرعة: لا يا أمي.. أرجوك.. اريده كما هو الآن.. لا أريده أن يعود كما كان..

مصمصت والدتها شفتيها في حسرة.. انطلقت ضحكة من رشا وهي تقول: هناك نساء تحب السك! ويبدو أن رانيا تحب صفعة من حين إلى حين.. لوية ذراع.. أشياء من هذا القبيل!

إبتسمت في مكر: نعم .. ربما..

طارت إلى بيتها.

يا إلهي.. ما أجمل ما سمعته من زوجها اليوم.

ما أجمل ما تشعر به.. ثقة.. فخر.. نشوة.

هل هي تحلم؟ .. هل تحقق حلمها.. هكذا.. في شهور.. يحبها؟

لا لم ينطقها.. ليس عليه أن ينطقها.

لا تريده أن ينطقها أبداً...

كيف تبدو الإسكندرية بهذا الجمال؟

مع ازدحام المصطافين.. والضوضاء.. بالكاد تستطيع أن تمشي في الشارع.. ولكنها لا ترى سوى البحر.. بأمواجه الهادئة.. يلاطفها.. يغويها .. يعشقها.. أصبحت تحب رائحة البحر.. مثله تماماً..

- ماما.. عايزة چيلاتي دلوقتي.. ماما..

توقفت.. إشترت لأولادها الحلوى.

عليها أن تعود إلى البيت بسرعة.. فربما يأتي.. ومن الآن تريد أن تقضي معه كل لحظة في عمرها.

حملت رامي..أمسكت بيد أحمد وسارت مسرعة إلى البيت.

تسلقت السلم وقلبها يخفق بشدة.. فتحت الباب.. لا لم يأت بعد.. ستنتظره..

نادت على البواب.. طلبت منه أن يأتي ببعض الجبن والزيتون والبسطرمة والخبز.. لا ليس لديها وقت للطبخ اليوم..

اليوم ستجلس على الأريكة تنتظره.. فقط تنتظر قدوم حلم حياتها.

جاء البواب بالأشياء.. جهزت بعض السندويتشات لطفليها.. وضعتهما على السرير ودعت الله أن يناما..

سمعت صوت الباب يفتح.. علت دقات قلبها.. إرتعشت.. لماذا؟ إنه زوجها.. وكان زوجها منذ خمس سنوات.. بل أكثر..

تحركت ببطء حتى لا توقظ ولديها.. فتحت باب الحجرة.. فوجدته أمامها.. شهقت.. ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه.. وكأنها لم تره منذ سنوات.. وكأنها لم تكن معه من ثلاث ساعات..

ألصقت خدها بصدره وهي ترتجف وهمست: وحشتني.. قوي..

قال في دهشة وهو يربّت على كتفها: ماذا بك يا رانيا؟ فقدت عقلك تماما؟!

- لماذا؟ لأني أحبك؟

أبعدها عنه بعض الشيء.. نظر لعينيها ثم ابتسم قائلاً في حنان: سعيدة يا رانيا؟ اليوم أنت سعيدة؟

هزت رأسها بالإيجاب ثم تنهدت وقالت: هل أكلت شيئاً؟

نظر للمائدة وقال في تهكم: لا.. كنت أحلم بالجبن الرومي!

جلس.. نظر لعينيها في حب ثم قال وهو يقطع قطعة خبز: عندي لك أخبار جديدة.. قابلت عايدة مرة أخرى!

نظرت له في توعد ثم قالت وهي تقطع الخبز في غل: وماذا قالت؟ هل أقنعتها؟

سكت برهة.. عبس وجهه.. ثم قال: إرثي لحالها يا رانيا.

نظرت له ولم تتكلم..

- هل تصدقينني لو قلت لك أنني أشعر بشيء من الذنب تجاهها؟

قالت في جفاء: لماذا؟

- هي صغيرة وعبد الكريم استغلها.. لم أكن أعرف عنه أنه قادر على هذا.. أرغمها على أشياء على ما أعتقد.. لم أكن أعرف.. كان أستاذي.. كنت أسمع أن عنده الكثير من العلاقات ولكن لم أكن أعرف مدي دناءته.. أبداً لم أكن أعرف عنه هذا.. لو عرفت هذا كنت سأفعل شيئاً.. لو كنت أعرف أنه يستغل الطالبات هكذا كنت سأحاربه.. كان عليّ أن أعرف..

- كيف كنت ستعرف يا علاء.. بالطبع لا أحد يعرف سوى الطالبات.. ولا يتكلمن خوفاً منه.

- كان عليّ أن أعرف كان من واجبي أن أحميهن.

- لا تكلف نفسك أكثر من طاقتها يكفي ما أنت فيه.. هل أقنعتها يا علاء؟

بدأ يأكل وقال: لا لم أقنعها.. تريد الزواج يا رانيا.. لا بأس.. أخبرتها أن هذا مستحيل.. والقضية مستمرة.. تكلمت مع المحامي.

قالت وهي تأكل: وماذا قال؟

- أنت طلبت منه أن يتفاوض مع الشهود؟

هزت رأسها بالإيجاب في فخر.

قال في تهكم: تفاوض معهم.. خليل يطلب مائة ألف جنيه.. لأنه يريد تأمين مستقبله! بالطبع سيفقد وظيفته.. ومستعد للاعتراف على عبد الكريم.. وعفاف..

- عفاف ..

- عفاف تريد مائة وخمسين ألف جنيه ومستعدة هي أيضاً أن تعترف بالحقيقة.. قالت أنها تفضل هذا حتى لا تقسم يميناً كاذباً.. لا تحب الكذب.. ومستعدة أيضاً للاعتراف أن عبد الكريم هو الذي حرّضها وهددها..

نظرت له في حيرة.. لا تفهم بالضبط ما يقوله زوجها..

نظر لها ثم قال في لامبالاة: حسناً.. سأشرح لك من جديد.. لأشتري براءتي من جريمة لم أرتكبها.. يجب أن أؤمن مستقبل خليل وعفاف وأجعل منهما أغنياء بين يوم وليلة.. مائتان وخمسون ألف جنيه لأشتري براءتي ولا أستطيع أن أشتري أحد الشهود، عليّ أن أشتري الإثنين معاً.. وسوف أتخلص من عبد الكريم بالطبع.. الدكتور عبد الكريم لا يساوي جنيهاً واحداً!

ظهر عليها الدهشة ولم تنطق.

أكمل في نفس تهكمه:

- رانيا.. لا أملك هذا المبلغ.. حتى لو بعت الشقة وذهبك وسيارتك وكل أثاث المنزل.. ربما كل هذا يصل إلى مائتين وأربعين ألفاً.. ثم أقترض عشرة آلاف من أبي.. مثلاً.. كل ما يملكه عشرة آلاف وكل هذا لأجعل الممرضة عفاف والساعي خليل أغنياء! ما رأيك؟

قالت في حيرة: لا أدري..

قال في فزع: لا تدري؟ بالطبع هذا هراء.. أنا بريء يا رانيا إذا كان الإنسان يشتري براءته في هذا البلد بكل ما يملك، فأنا لا... لن أفعل... لن أخضع لابتزاز أحد.. سوف أثبت براءتي بالمحكمة.. هذا مثير للإشمئزاز.. كيف يستغل البشر بعضهم بهذه الطريقة؟

قالت في هدوء: نعم.. البشر يستغلون بعضهم البعض.

قام.. قال في غضب: أشعر بالغثيان.. بالقرف لمجرد الفكرة أن عليّ أن أشتري براءتي بكل ما أملك.. وأنا بريء.. كنت طبيباً ممتازاً.. صدقيني.. كنت أعمل بضمير..هذه هي المشكلة كلمة "ضمير" لا تعني شيئاً.

قالت في تلقائية: وما هو الضمير؟

نظر لها في دهشة: ألا تعرفين ما هوالضمير؟ الصوت الذي يحثك على فعل الصواب وتجنب الخطأ.

قالت وهي تقوم في تهكم: هذا ما تريده عفاف.. تريد أن تبتعد عن الخطأ وتريدك أن تساعدها بمبلغ بسيط.

قال في غضب: أشعر بنار بداخلي.. تأكلني يا رانيا.. برغبة جامحة في تحطيم رقبة خليل وعفاف وعايدة وعبد الكريم.. هل شعرت من قبل برغبة في قتل أحد؟

قالت مازحة: نعم .. الكثير..

تجاهل كلماتها ثم أكمل: أريد قتلهم جميعا..

أمسك بعلبة السجائر.. أخرج سيجارة وبدأ يدخن وهو يجلس على الأريكة.. ثم أمسك بكوب كان على المنضدة بجانب الأريكة ودفع به

إلى الحائط في قسوة.. فتحطم.. وزوجته تنظر له في صمت.. شيء من الفزع.. شيء من الخوف.

همست وهي تجلس على الأرض وتقترب منه: الظلم قاسٍ.. أعرف يا علاء!

لم ينطق.. أكملت بعد برهة..

– أشعر بك.. أعرف ما تمر به.. الله معنا.. لا تقلق.. فكر بهدوء.. علاء..

قال وهوعلى وشك الانتهاء من السيجارة: نعم..

– ماذا قال المحامي أيضاً؟ ما موقفك في القضية؟ وماذا عن شهادة زملائك؟

قال في عدم اكتراث: زملائي كتبوا مذكرة أشادوا فيها بسلوكي.. أعتقد جيهان قدمت المذكرة للنقابة.

بلعت ريقها في ألم.. ثم قالت: نعم.. هذه أخبار سعيدة.. كل هؤلاء أطباء أكفاء يقفون بجانبك.

نظر لها فجأة وقال في لهجة حادة: رانيا.. موقفي سيىء في القضية.. هذا ما قاله المحامي.. هناك شهود.. وهناك فتاة تتهمني.. ذهبت إلى الطبيب الشرعي.. وفتاة قاصر.. هذه جريمة مُحْكَمَة التدبير. عبد الكريم يعرف جيداً ما يفعله.

قالت في تلقائية: فكر في شرائهم إذن.

صاح في غضب: ما هذا الهراء؟ قلت لك من قبل لماذا أشتري براءتي وأنا بريء؟

– للضرورة أحكام.

قال في عصبية: أتركيني الآن يا رانيا.. لا أريد أن أتكلم الآن.

قامت في هدوء.. ذهبت إلى المطبخ وبدأت في إعداد الشاي وهي تنظر إلى النار.. تحملق في النار.

تعرف أن هذه هي النار التي بداخل زوجها.

ماذا كانت ستفعل لو كانت مكانه؟

علاء مختلف.. علاء يفكر بطريقة مباشرة وقوية.. يسير في طريق مستقيم طوال حياته.. يصل إلى كل هذه المراكز بمجهوده ولا يعرف شيئاً عن الوساطة.. عن النفوذ.. عن التنازل..

وهي؟

لم تحتك بالكثير قبل الزواج.. ولكنها دائماً تشعر بما حولها.. تعرف ما يدور حولها.. ربما أكثر منه.

أمسكت ببراد الشاي.. وضعت الشاي في الكوب..

وعادت إليه.

كان ممدداً على الأريكة..

ينظر إلى لا شيء..

لم يلتفت لها..

ماذا بيدها أن تفعل؟ تكره نظرة الحزن في عينيه.. نظرة الأسى..

قالت وهي تمد يدها بالشاي: الشاي يا حبيبي.

أمسك بالكوب من يدها ولم ينطق.

جلست على الأريكة..أمسكت بيده وهمست في حنان: علاء.

قال في ملل: لا أريد أن أسمع رأيك يا رانيا.. منذ أربعة أشهر لم يكن لك رأي في شيء.. هل تتذكرين؟ والآن عندك كل هذه الآراء.. بدأت أمّل هذه الآراء.

قالت في تصميم: ربما.. لو سمعت رأياً فقط حتى ترضيني.. ليس عليك تنفيذه.

نفخ في غيظ: لا أريد ان أرضيك.. لماذا كل هذا التصميم؟ اتركيني يا رانيا

داعبت وجنته بيدها وهمست: فقط إسمع رأيي

نظر لها

فقالت هي: لا توجد طريقة واحدة لحل كل المشاكل.. مثلاً أنا.. كنت أنتظر يوما تحبني فيه.. كنت أظن أني لو بذلت مجهوداً سوف تحبني.. ولكن في الحقيقة أحببتني عندما أردت أنت هذا.. أحببتني بطريقة لم أتوقعها.. أتفهم قصدي؟

هز رأسه بالنفي: لا.. لا أفهم قصدك.. من قال أني أحبك؟ هل قلت أنا هذا؟ هل قلت هذا اليوم أو أمس أو أول أمس؟

نظرت له في توعد ثم قالت: لا لم تقل هذا.. ولا أريدك أن تقوله.. أرجوك إسمع رأيي.. يجب أن تكون مرناً.. الآن لو كان عندك خيار بين أن تفقد مستقبلك أو تفقد كل أموالك، ماذا ستختار؟

– هذا ليس الخيار.. الخيار هو أن أفقد مستقبلي أو أجعل من اثنين محتالين مليونيرين بمالي أنا.. بعرقي أنا.. أنا لا أخاف.. الحق سيظهر.

– ربما.. ربما لا.. ولكن عبد الكريم هذا.. دفع الكثير ليتخلص منك وهو آفة في هذا المجتمع لماذا لا تدفع أنت الكثير لتتخلص منه..

وبعد أن تتخلص منه تبني نفسك من جديد.. وأنا معك وفي سنوات قليلة سيكون عندك ضعف هذا المبلغ والله لن يبارك لعفاف وخليل.. ربما يوماً ما تظهر براءتك و..

قاطعها مسرعاً: هذه هي المشكلة.. التهاون في الحقوق هكذا.. هذه مشكلتنا يجب أن ندفع رشاوى لنأخذ حقنا لماذا؟

– نحن نتكلم عن مشكلتك أنت يا علاء.. ولو دخلت السجن، لن تغير شيئاً.. فقط ستتغير أنت!

قاطعها وهو يقوم: لا أريد أن أسمع هذا الهراء.. سأخرج الآن.. أريد أن أتنفس.

هزت رأسها بالإيجاب قائلة في حنان: مع السلامة يا حبيبي.

لم يجب.. خرج وأغلق الباب.

بقت على الأريكة.. تفكر.. تشعر بشيء من الحزن وشيء من الفرح..

وجيهان؟ ربما تحبه.. ولكنها لا تحبه نصف الحب الذي تحبه هي له.. الآن هو لها.. هو لها هي.

تنهدت في ألم ونشوة وأغمضت عينيها.

***

جلس في نفس مكانه في القهوة.. لم يكن يسمع شيئاً من كلام أخيه.. يتكلم.. ويتكلم.. يشكومن زوجته وما تفعله به وبكرامته أمام أطفاله.

يشكو من غلو الأسعار.. من الناس.. من مديره الغتوت.. من الجو الحار من زحام المصطافين.. يشكو ويشكو..

وعلاء.. لا يسمع.. فقط يشعر بقلبه يثور على أضلعه.. كيف تفكر زوجته هكذا؟ كيف يتهاون الإنسان في حقه لهذا الحد؟ أين الكرامة؟ أين الإنسانية؟

لا لن يخبر أخاه.. لن يتناقش معه ولا مع غيره.

ماذا قالت رقية المنيسي؟ يتذكر كلماتها.. أن الجهل هو المشكلة..

الجهل بالحقوق.

نظر حوله.. للنساء وهن يشترين الخضروات واللحم.. للرجال وهم يسيرون في هدوء واستسلام يحملون أكياس البرتقال وأرغفة الخبز والفول..

اعتادوا الهوان إذن..

لماذا يتكلم وكأنه مختلف عنهم؟

هنا ولد في الإبراهيمية.. في مدينة الإسكندرية.

هنا تربى..

هنا درس.

كان منهم.. ثم ماذا؟

سافر وعاد.

هل تغير؟ ربما.. ربما .. وربما لا.. .

هل تغير؟

نعم تغير.. لم يعد يتقبل الظلم في امتنان.. لم يعد يصبر على حق ضائع.

لم يعد يريد أن يرى النفاق..

هل تغير.. نعم.

يريد أن يعمل في جد واتقان.. يحب الإتقان في العمل.. يعشق عمله.

هل تغير؟

لم يعد يشعر بنفسه جزءاً من هذا المجتمع.. بل وافد يؤدي مهمته.

ينظر إلى أخيه وهو يتكلم ويشعر بأن مشاكله مختلفة.. غريبة عنه.

لا يهمه من تزوج مَن؟ لا يهمه بكم كيلو اللحم..

هل تغير؟ نعم.. شيء واحد يثير أعصابه إلى حد الجنون.. عدم وجود أي خصوصية في هذا المكان.. كل إنسان يعرف عنك أدق التفاصيل.. متى أكلت لحماً وملوخية.. متى ذهبت إلى الطبيب.. متى تشاجرت مع زوجتك ولماذا تشاجرت مع زوجتك.. حتى متى عاشرت زوجتك.

شيء مستفز.. كل إنسان يحشر أنفه في حياة الآخرين.. يعطيهم النصيحة.. ويتوقعها منهم!

إبتسم لنفسه في تهكم وهو يتذكر والدته.. كيف استجوبته يوم باتت معه زوجته..

هذا ما لا يطيق.. التدخل.. وعدم وجود أي خصوصية.

هل تغير؟

لا.

كل الأفكار التقدمية عن المرأة وحرية المرأة و..

نعم يحترم المرأة ويحترم حريتها.. ولكن..

لماذا إختار رانيا إذن؟

لأنها بريئة.

ماذا فعل عندما أخبرته أنها تحب آخر؟ تصرف بتحضر؟

ثار كما لم يثر من قبل..

بداخله رجل مصري.. يحترم والديه.. يساعد أخاه بكل ما يملك وماذا؟

يريد زوجته عذراء نقية وبريئة..

من هو إذن؟

لا يدري.. ولا يريد أن يفكر في هذا الآن.. لا يحب الظلم.. يكره الظلم.. آه مما يفعله الظلم بالبشر. مرارته في حلقه لا تجعله يستطعم شيئاً.

سار إلى بيته.. سار والشارع لم يزل مزدحماً.. في الثانية صباحاً.. فتح الباب في هدوء.. دخل.. لم يجدها.. نائمة إذن.

فتح باب حجرتهما.. كانت تجلس على السرير تستمع إلى أغنية نجاة الصغيرة:

"أنا بعشق البحر.. زيك يا حبيبي حنون.. وساعات زيك مجنون.. ومهاجر ومسافر.. وساعات زيك حيران.. وساعات زيك زعلان.. وساعات مليان بالصبر.. أنا بعشق البحر.. .."

إبتسمت له في حنان وهمست: تأخرت يا حبيبي.. قلقت عليك.

لماذا كل هذه الرقة.. يحتاجها.. يحتاجها من جديد.

إقترب منها.. ألقى بنفسه بين ذراعيها.. ألصق قلبه بقلبها وهمس في مرارة: أحتاجك يا رانيا.

قالت في حنان وشجن: أنا هنا معك يا حبيبي..

لم ينطق.. ولم تنطق.. بقى بين ذراعيها دون كلمة.

فهمست هي: سيدة سألت عليك.. من طرف السيدة رقية المنيسي.

تركها في بطء.

- ماذا قالت؟

أجابت في شيء من التأثر: الله يرحمها.. ماتت اليوم صباحاً.

شعر بألم في صدره.

تمدد على السرير وهمس: كنت أحبها.. هذه السيدة كنت أحبها.. الله يرحمها.

- كانت تريد أن تراك.. تركت لك رسالة.

نظر لها في دهشة فأكملت: تركت لك رسالة.. غداً العزاء.. ستسلمها لك زوجة ابنها غداً.

هز رأسه بالإيجاب.

تكره نظرة الانكسار في عينيه.. تكرهها.

قالت في تصميم: فكرت فيما قلت لك اليوم؟

قال في جفاء: لا أريد أن أتناقش في هذا الموضوع.. لن أتنازل عن حقي.. وإذا دخلت السجن.. فالأدخل السجن.. هذا قدري إذن.

- علاء فكر فيّ وفي أولادك.

قال في غضب: بالطبع لأفكر فيك وفي أولادي.. لو بعت شقتي أين سنعيش؟

-عند أبويك.. لا توجد مشكلة.. عامان ونشتري شقة أخرى.. علاء.. فكر بعقلك.

-أنا أفكر بعقلي.. وأريد أن أنام.. لن أتكلم في هذا الموضوع.

أغمض عينيه وصورة رقية المنيسي لا تترك مخيلته.. ضحكاتها الشبيهة بصوت الترام.. عيناها الصغيرتان الباهتتان.. طاقم الأسنان في الكوب الزجاجي بجانب سريرها..

كانت سيدة راقية.. ذكية.. قليلة الحظ.. وحيدة وحزينة.. هي الآن بين يد الله.

رقية المنيسي.. علمته ما هو الحرمان!

رقية المنيسي علمته ما يفعل الحظ بالبشر.

وما هو الحظ.. الحظ شيء لا يؤتمن.. يخطف .. يقتل.. يخون.

الحظ.. يترك أناساً بلا حب محرومين حتى من آدميتهم.

نظر لزوجته.. كانت نائمة بين ذراعيه في سكون وراحة.. يداها تطوق صدره.

عندما قابل رقية أول مرة.. كان يظن نفسه سيعيش حياته محروماً مثلها.. بسبب حبه المستحيل لجيهان.. عندما قابلها منذ شهور مضت كان الاشتياق لجيهان يحبطه.. كان يعرف أنه سيعيش حياته مضحياً من أجل زوجته وأطفاله.. كان يتذوق الحرمان.. ويعرف طعمه.

والآن..

وضع يده على ذراعها الرقيقة.. مررها على ذراعها في رقة.. يحبها.. يحبها كما لم يحب امرأة قط.. ولا يدري لماذا ولا متى.. ولا يدري ما مصدر مشاعره..

لا.. هو ليس بالرجل الذي يكتشف أنه كان يحب زوجته طوال الوقت دون أن يشعر..

لم يكن يحبها.. فقط أحبها في الأشهر الماضية.. كرهها.. ثم أحبهـا.. لا يدري.. اختلطـت عليـه الـروائح.. حتـى استنشـق رائحـة حبهـا ولم يعد يستنشق غيرها.

مشاعره تجاهها تملكته.. أنسته چيهان.. أنسته كل شيء..

إبتسم لنفسه في شيء من السخرية.. هذه المصرية.. القمحية اللـون.. الهادئة الوديعة البريئة.. تستطيع أن تكون وحشاً كاسـراً.. بـداخلها قـوة وتصميم لم ير مثلهم قط..

الحرمان ليس من نصيبه .. طالما هي معه.. يحتاجها ..

هي له.. على الأقل هي له ومعه.. ربما هذه الظروف قرَّبتـه منهـا.. ربما جعلتها تخلع القناع..لا يدري.. هل هو محظوظ إذن؟

ضاع مستقبله.. انتهي أم لم ينته بعد؟.. على الأقل يعرف أن الحرمان لم يعد من نصيبه.

***

لا أحد يبكي في هذا العزاء.. لا أحد يبكي.. إبنها يبدو فـي منتصـف الخمسينيات.. شعره الأسود ليس به أى شعرة بيضاء.. متجهمـاً جالسـاً لا يتكلم ولا يبكي.

ما إن رأت زوجة ابن رقية علاء حتى اتجهت إليـه.. كانـت تبـدو مختلفة.. لا ترتدي أجمل ثيابها.. ترتدي ثوباً أسود.. شعرها المربوط ذيل حصان يبدو رمادياً.. فقد رونقه ولونه الأحمر.. وجهها يبدو باهتاً شـاحباً وكأنها لم تنم منذ زمن طويل.

إبتسمت له في أسى ثم قالت: ماتت.. كانت ذكية.. كنت أحبها.. أظنني سأرحل أنا أيضاً.

قال علاء في حيرة: معذرة؟

- كنت أتكلم عن نفسي.. أظنني سأرحل.. هذا البيت لم يعد بيتي.. لم يعد يحتاجني أحد هنا.. لا زوجي ولا أولادي.. وهي ماتت.

ساد الصمت لحظات ثم قال علاء فجأة: هل أكلت السيدة رقية بطاً قبل أن تموت؟

نظرت له السيدة في ذهول: معذرة ماذا قلت؟

- هل أكلت بطاً؟

- لا.. لا أظنها أكلت بطاً.. أكنت تخشى أن تكون ماتت بسبب البط؟.. أعني لأنها أكلت بطاً وهي مصابة بالقرحة؟

ابتسم في أسى.

- دكتور علاء

قال متجهما: نعم.

أخرجت ظرفاً من حقيبتها ومدت له يدها به: هذا لك.. في الأيام الأخيرة.. كانت تريد أن تراك.. أنا آسفة كان يجب أن أتصل بك.. لم أكن أعرف أنها ستموت.. ماتت في هدوء وسرعة.. أغمضت عينيها وراحت في نوم عميق.. ولم تصح.

هز رأسه بالإيجاب.

خرج من الفيللا.. نظر حوله للحدائق الفاخرة.. للأشجار العالية التي تخفي البيوت الكبيرة في منطقة سموحة.. جلس على سور قصير لإحدى الفلل.. نظر إلى الظرف.. ظرف طائرة كما يقولون..

إبتسم في مرارة.

على الظرف من الخارج كلمتان: دكتور علاء.

عزيزي الدكتور علاء،

شكراً

رقية

أغمض عينيه في ألم.. ألم من جديد.. ماذا تقصد؟ لماذا تشكره؟ لا يدري.

ربما لأنه شعر بآدميتها.. بينما كل من حولها كان يعاملها كطفل غير مميز.

ربما لأنه كان شاباً.. وهي عاشت حياتها في حاجة إلى رجل مثله.. وعندما نظرت إلى وجهه.. شعرت بجفاف حلقها يتلاشى تدريجياً؟

ربما لأنه طبيب "شاطر"؟

لا أحد يدري.

عندما عاد إلى البيت قالت زوجته في فضول: ماذا في الرسالة يا علاء؟

أعطاها لها.. فتحتها.. وقالت في حماس: أظنها تريدك أن تدفع كل ما تملك لتشتري براءتك.

نظر لها في ذهول.

فأكملت: أنظر.. إنها كتبت دكتور علاء.. علاء، لو خسرت القضية.. لن تبقى دكتور.. أتفهم؟

قال في تهكم: لا.. لا أفهم.. لا أفهم ما العلاقة بين هذه الرسالة وبين التنازل عن حقي.. ولا أريد أي نقاش في هذا الموضوع.. فهمت يا رانيا؟

***

يوم السبت صباحاً صلت رانيا كعادتها صلاة الصبح ثم قررت أن تشنها حرباً على زوجها.. لقد عزمت أمرها.. واتخذت قرارها.. فاليضحي بالمال من أجل مستقبله.. لم تعد تستطيع أن تراه في هذه الحالة.. بدأ منذ يومين العمل المسائي في الشركة التي يعمل بها أخوه.. لا ليس سعيداً.. لا يتكلم.. ولكنها ترى الإحباط في عينيه في كل لحظة.. كل يوم يقول في يأس: سأرحل ولن أعود أبداً يا رانيا.. لن أعود لهذا البلد أبداً.

نظرت لساعتها.. التاسعة صباحاً.. ساعدت طفليها في ارتداء ملابسهما.. وخرجت متجهة إلى حماتها.

ابتسمت لحماتها.. اليوم تشعر بقوة غريبة.. دخلت المطبخ القديم الضيق مع حماتها وقالت: تريدين مساعدة يا طنط؟

- شكرا يا رانيا.. هل سيأتي علاء ليأكل معنا اليوم.. إذا كان سيأتي، سأطبخ له القلقاس الذي يحبه.. أما إذا كان مشغولاً، فلن أطبخ.

- سيأتي يا طنط.. أخبرته في الصباح أن عليه أن يأتي.

صمتت برهة ثم قالت في لهجة جادة: طنط فاطمة.. أنا خائفة على علاء.

نظرت لها فاطمة في قلق ثم قالت: كلنا نخاف عليه يا ابنتي.. فاليلهمه الله الصبر على بلائه.

- أتعرفين ما دار بينه وبين المحامي.. هو لا يريد أن يخبر أحداً.. ولكن أنت تعرفين يا طنط.. أنا لا أخفي شيئاً عليك أبداً.

نظرت لها في شيء من الغضب.. شيء من الحيرة: وعلاء لا يخفي شيئاً علي.. بالطبع سيخبرني.. فقط لم أره منذ أربعة أيام.

قالت رانيا في رجاء: أرجوك يا طنط لا تخبريه أني أنـا أخبرتـك.. فقط قولي له أن.. أن محمد تكلم مع المحامي.

نظرت لها في عتاب ثم قالت: ما الموضوع يا رانيا؟

- يمكن لعلاء شراء الشهود بمئتين وخمسين ألف جنيه.. أنا مستعدة أن أعطيه كل ما أملك..

وقاطعتها في قوة: ولماذا يشتري براءته.. هو بريء يا رانيا..

- بالطبع هو بريء.. ولكن القضية محكمة يا طنط..

صمتت السيدة برهة.. نظرت لرانيا في شيء من الإعجاب ثم قالت: مستعدة أن تضحي بشقتك وسيارتك وكل شيء من أجله؟

- كل شيء.

- أصيلة يا رانيا.. والداك أحسنا تربيتك يا رانيا.

صمتت فجأة.. لا الإطراء سيجعل زوجة ابنها تصاب بالغرور.. قالت مسرعة: وطبعاً يا رانيا هذا شيء طبيعي أن تضحي الزوجة من أجل زوجها.. فكثيراً ما ضحى هو من أجلك.

قالت في تلقائية: أنا أحبه.

قالت أمه في شيء من التأثر والعصبية: كلنا نحبه يا رانيا.. كلنا نحبه!

- تكلمي مع المحامي يا طنط.. إسأليه عن وضع علاء في القضية.. وتكلمي مع محام آخر.. هذا هو رقم المحامي.. والآن أريد أن أتكلم مع عمي عبد الله ومحمد.

عندما جاء زوجها.. وابتسمت له أمه في حنان وهي تقول في فرح: طبخت لك القلقاس الذي تحبه يا علاء.

لم يكن يتوقع الحرب المفاجئة التي شنتها زوجته عليه.

بدأ والده في الكلام.. قال إن محمدا هو من تكلم مع المحامي..

– ربنا يعوض عليك يا بني.

– محمد عنده مشترٍ للشقة.

– للضرورة أحكام يا علاء.

– لو انتظرت حتى يقسم الشهود ويدلوا بالشهادة لن يتراجعوا أبداً.. هذه فرصتك الأخيرة.

إبتسمت زوجته في انتصار ولم تنطق.

رمقها بنظرة غريبة.. توعد.. شك..

شعرت بشيء من الخوف ولكنها بقت صامتة.

عندما بدأت أمه في غسل الصحون في المطبخ.. ذهب لها.. إبتسم وقال: ماما.. رانيا هي من أخبرتك؟

قالت مسرعة: لا يا علاء.. محمد.

ربَّت على كتفها: ماما.. لماذا يسأل محمد المحامي؟ أخبريني بالحقيقة.. لا توجد مشكلة أنا أعرف أنها كانت تخاف علي.

– لماذا لم تخبرني أنت يا علاء؟

– لأنه لا يوجد ما أخبرك به.. هذا رأي زوجتي ولن أنفذه.

خرج من المطبخ والغضب يخرج من عينيه.. إلتقت عيناه بعيني زوجته.. شعرت برجفة في يديها.. ذهبت له وهمست في أذنه: علاء! هل هناك مشكلة؟

أمسك بيدها قائلاً: هيا إلى البيت.

لم ينطق طوال الطريق.. صاحت في عصبية وخوف: لا توجد مشكلة.. نعم أخبرتهم..

لم يجب.. بلعت ريقها وقالت في ترجي: علاء لقد كنت مستعداً أن تبيع شقتنا لتدفع للمحـــامي والآن لســت مســتعداً لبيعهــا لتنهــي المشــكلة.. أنا لا أفهمك.

أجاب في قوة: مستعد أن أبيع كل شيء لأظهر براءتــي، لا لأشــتري براءتي من هؤلاء المحتالين.

قالت في غضب: كف عن هذا الكلام الكبير.. أمامك ثلاثة اختيارات.. إما أن تبيع نفسك لعايدة.. وتتزوجه، أو تدخل الســجن وتفقــد مســتقبلك، أوتشتري براءتك!

- هناك اختيار رابع.. أن يظهر الحق!

قالت في صرامة: أخوك وجد مشتري للشقة يا عــلاء.. إنهــا شــقتي أنا أيضاً .. وهذا قراري أنا أيضاً.

نظر لها في دهشة.. دائماً تدهشه هذه المرأة.

لم ينطق.

عندما وصلا البيت.. جلس وقال في هدوء: رانيا.. أولاً كان هذا ســراً بيني وبينك فأخبرتي كل من تعرفيهم.. بما فيهم الجيران على ما أعتقــد.. ثانياً.. تقفين الآن وتتحديني وكأنك أنت صاحبة القرار.. لن أقبــل هــذا.. تعرفين جيداً أني لن أقبله.

قالت في لامبالاة: ماذا ستفعل؟ كل من حولك يتفق على شــيء واحــد وأنت ترفضه لماذا؟

صاح في وجهها: لأن هذه حياتي وهذه قضيتي.. لا تتحديني يا رانيا.. لا أحب هذا.

همست في ترجي: أرجوك يا علاء.. من أجل أولادك.

قال في مرارة: تريديني أن أستسلم لهم.. هذا ما تريدين؟

- أريدك أن تنقذ نفسك أولاً.. لا يوجد الكثير من الوقت.. علاء.

قال في حزم: رانيا.. لن أحاسبك على ما فعلت اليوم لأنها أول مـــرة.. ولكن..

نظرت له: ولكن ماذا؟ ما هو تهديدك يا علاء.. ما هو تهديدك للعبـــدة التي اشترتها لك أمك؟

تنفس الصعداء: في المرة القادمة.. لن أصمت.. ومن اليوم.. لا أريـــد أن أسمع أي شيء عن هذا الموضوع أبداً.. لو تكلمتي معـــي فـــي هـــذا الموضوع مرة ثانية.. لن تري وجهي في البيت مرة أخرى.. أتفهمين؟

قالت في ترجي من جديد: علاء.. لا تقل هذه الأشياء.. ستتركني لأني أخاف عليك؟ لن تفعل هذا أنا فقط أخاف عليك.. ستنسى الطب يا عـــلاء.. طوال هذه الشهور وسمعتك في مهب الريح تحتاج أن تنهـــي الموضـــوع سريعاً.. ثم .. هناك شئ آخر.. إفرض أنك خرجـــت بـــراءة.. بـــالطبع عبد الكريم يعرف أن هذا جائز.

نظر لها في دهشة: ماذا تقصدين؟

- لن تستطيع أن تثبت عليه أي تهمة.. سيبقي يستغل البنات ويســـتغل منصبه.. أهذا ما تريد؟ في يدك التخلص منه وإنقاذ كل البشر من شره.

نظر لها برهة ثم قال في تهكم: أين كان كل هـــذا الـــذكاء! ولكـــن.. ها أنت تتكلمين من جديد.. رانيا!!

قالت في ترجي: علاء!!

فتح باب الشقة: حسناً سأخرج.. لم أعد أحتمل هذا الكلام.

قالت مسرعة وهي تمسك ذراعه: لا.. لا تخرج.. لن أتكلم في هذا الموضوع.

- وعد؟

قالت في امتعاض: وعد.

نظر لعينيها الحزينتان ثم قال: ولا أريد أن أرى الحزن في عينيك.. سئمت الحزن.

قالت في استسلام: ولكن كيف لا أحزن وزوجي ربما يضيع مني للأبد.. لو سمعت رأيي يا علاء..

أمسك برأسه.. صداع بدأ يقطع رأسه.. واستمرت هي في الكلام.

***

إستلقى على السرير وأغمض عينيه.. شهر وهو يعمل في هذا العمل المسائي.. شهر مر عليه وهو يعمل في غير تخصصه.. وهو يبذل مجهوداً هائلاً من أجل القليل من المال.. وهو يهين نفسه من أجل أن يعيش..

شعر بيد زوجته تهزه في قوة.. أصبح يخاف زوجته.. وإلحاح زوجته!

قال: أنا نائم يا رانيا.

قالت في فزع: علاء.. مصيبة يا علاء!

لم يتأثر.. تعلم الدرس.. مصيبة في مصر لا تعني مصيبة كل الوقت.. أحياناً تعني مشكلة تافهة لا تستمر سوى ساعات.. وأحياناً تعني مشاجرة بين اثنين تنتهي بالبكاء والعناق القوي.

قال في هدوء: ماذا جرى؟

- رشا.. أختي؟

- ماذا بها يا رانيا؟

دقت على كتفه في قوة: أنظر إليّ.. علاء..

أدار وجهه وقال: نعم

- رشا.. منهارة تماماً..

- لماذا؟

- مصيبة كبيرة!!

إبتسم في ملل: زوجها مات؟

- لا أكثر.. ليته مات.

فتح عينيه مندهشاً

- علاء.. زوجها يريد أن يطلقها.. أعني هي تريد أن تطلقه!

-وهذا أسوأ من موته؟

- طبعاً.. لو مات كانت ستعيش على ذكراه..الآن ستعيش لتحاربه..

- ولماذا تريد رشا الطلاق.. هل تزوج شوقي بأخرى في السعودية؟

- لا

- لماذا إذن؟

-فعل شيئاً وحشياً.

- ضربها؟

- لا ليته ضربها..

- ماذا فعل يا رانيا؟

- ألقى بالموبايل من النافذة.. كان يتشاجر معها على المصروف كعادته قبل السفر إلى السعودية.. وأخبرها أنه سئم طريقتها المادية

في المعاملة وألقى بالموبايل من النافذة.. أصـــيبت بانهيـــار.. بـــالطبع.. أنت تعرف كم تحب الموبايل.. علاء..

خرجت منه ضحكة وسط آلامه..

- أختي مادية يا علاء؟

قال في تأكيد: نعم مادية يا رانيا.. مادية جداً.

- وماذا عن زوجة أخيك؟

- مادية أيضاً.

- وأنا؟

- مجنونة!

تنفست الصعداء ثم قالت: حبيبي.. يجب أن ننظم جلسة رجال!

نظر لها في دهشة مرة أخرى: أنت وأبي ومحمود تتكلمون مع شـــوقي ورشا.. يجب أن يشتري لها موبايل جديداً.

- وما شأني أنا؟ هذا موضـــوع لا يخصـــني.. لمـــاذا أتـــدخل فيمـــا لا يعنيني؟

نظرت له برهة..

- علاء.. أحياناً أراك تشاهد الأحداث وكأنك تشاهد فيلما.. أليست هذه عائلتي.. ألست مصريا؟ أنت تعرف في هذه الحالات نحتاج إلـــى تـــدخل الأهل

- شكراً على المعلومة الثقافية ولكني لا أعرف شوقي لـــم أره ســـوى مرّات في حياتي.. لماذا يستمع لي؟

- لأنك رجل عظيم.

إبتسم في أسى.

- لا تبتسم هكذا لو نفذت ما أطلبه منك ستعود أعظم مما كنت ولكن..

قاطعها: رانيا.. أريد أن أنام.

- هل يمكنك أن تتكلم مع شوقي أرجوك.. رشا ساعدتني كثيراً ..

- هذا ليس من شأني يا رانيا.

- إعمل الخير وارميه البحر..

وجد علاء نفسه يجلس في غرفة الصالون في بيت حماته وحماه في سيدي جابر.. مع شوقي ومحمود..

رمقه محمود بنظرة شك وقال: ما أخبار رانيا يا علاء؟

إبتسم علاء في فتور: بخير.

قال محمود: إنها إبنة عمتي وتستحق كل خير.

قال علاء في سخرية: نعم أعرف أنها إبنة عمتك وتستحق كل خير.

بلع محمود ريقه في ارتباك.. لم يعد يطيق علاء.. وكان الشعور متبادلاً..

بدأ أبو رانيا بالكلام.. ثم محمود.. كلهم يستجدوا شوقي أن يصالح زوجته من أجل ابنته.. وهو يرفض شراء موبايل جديد.

وعلاء يستمع في صمت.. لا يدري ماذا يقول..

قال محمود أخيراً: حسناً أنا سأشتري الموبايل وأنت أعطيه لزوجتك يا شوقي.

قال شوقي في غضب: مستورة والحمد لله.. أنا أملك المال اللازم لشراء موبايل جديد..ألا تعرف المدرسة التي تذهب إليها ابنتي.. مدرسة أمريكية بعشرة آلاف دولار في السنة.. إنها مسألة مبدأ فقط.

إقترب علاء منه وقال: وما هو مبدأك يا شوقي؟

– عليها أن تعرف أن الموبايل ليس أهم مني..

قال علاء في تلقائية: ولكنه أهم منك بالنسبة لها!

ساد الصمت في الغرفة كلها.. نظر له شوقي في فزع.

فقال علاء: لكل امرأة هواية.. وكون زوجتك تحب الموبايل أفضل من أن تحب شيئاً آخر.. لو كانت زوجتك تحب الرقص مثلاً، ماذا كنت ستفعل؟

قال الرجل في غضب: ماذا تقول يا علاء؟

– زوجتك تحب الموبايل! ما المشكلة؟ الموبايل ليس ضاراً بالسمعة..عليك أن تشجعها على هذه الهواية البناءة.. فهي تستعمله فقط في فعل الخير..

قال شوقي مسرعاً: ولكنها أهانتني!

وجد علاء نفسه يقول جملة أخيه الشهيرة: إنت حتعمل عقلك من عقل ست.. الرجل يجب أن يتحمل زوجته.

ثم اقترب منه وهمس: ناقصات عقل ودين يا شوقي..

عندما عاد إلى بيته.

إبتسمت زوجته له في فخر وقالت: كيف أقنعته يا علاء؟

إبتسم في تهكم ولم ينطق.

***

مرة أخرى يشعر أن الأحداث خارج نطاق حياته.. كل شـيء يحـدث للآخرين وليس له هو..

المرارة والحزن يأكلان قلبه كل يوم..

والأحداث تجري من حوله.. يداه تفتقدان الكشـف علـى المرضـى.. يفتقد الأجهزة الطبية.. عيناه تفتقدان النظر إلى الوجوه والعيون والكفـوف لتفهم المشكلة وتفك الطلاسم..

هل بدأ ينسى الطب؟ القضية بعد ثلاثة أشـهر.. سينسـى الطـب.. لم يعد يحتمل هذا الهوان.. لماذا يحتاج شقته إذا كان ينوي العـودة إلـى بريطانيا؟

لا.. لن يفكر بهذه الطريقة.. لن يستسلم مثلهم..

ولكنه يحتاج أن يكـون طبيبـاً.. كمـا يحتـاج المـريض الـدواء.. لو لم يعد طبيباً، لا يدري كيف سيعيش.

لم يعد يحتمل.

سئم العمل الذي لا يحتاج للتفكير.. كان ينظر للتشخيص على أنه لعبة ألغاز.. يفتخر بنفسه لو فاز بالجائزة وما أجمل الجائزة.

سئم الجلوس على قهوة الإبراهيمية.

وسئم المقابلات التافهة.

وسئم زيارة الأقارب وحل مشاكل الجيران.. والبحث عن مكان للسيارة في الشارع المزدحم والشجار مع البواب وبائع الخضار والبقال.

وسئم السير ساعات على الشاطيء.. بدأ يشعر أنه لا يشم رائحة البحر.

هذا خطير.. إذا لم يشم رائحة البحر فهو في خطـر.. اليـوم لا يشـم رائحة البحر!

سار في أسى إلى بيته.. فتحت زوجته الباب.. العتاب يملأ عينيهـا.. هذه الأيام تضغط عليه بكل الصور تارة بالوعيد وتارة بالتهديد.

دخل الغرفة دون كلمة.. إستلقى على السرير.. نظر إلى حقيبة أدواته.. كم يفتقدها..

ماذا يفعل؟

فتحت زوجته الباب: لقد طبخت اليوم يا علاء.. أتريد أن..

قاطعها قائلاً في يأس: حسناً يا رانيا.. أوافق.

نظرت له... لليأس الذي يملأ عينيه.. ثـم ابتسـمت فـي انتصـار.. قالت في حماس وهي تخرج من الحجرة: علينا أن نتصـرف بسـرعة.. بسرعة جداً.. محمد قال أن عنده مشترٍ للبيت سوف أتكلم معه الآن.

أمسكت بالتليفون.. لم يعد يسمع شيئاً.

أي عالم هذا الذي يعيش فيه.. نظر إلى يديـه.. يحتـاج أن يعمـل.. لم يعد يطيق البقاء هكذا..

ربما غداً يغير رأيه.. الآن يريد أن يفعل أي شـيء.. ربمـا غـداً.. غداً ماذا؟

دفن رأسه في الوسادة.. مرت عليه أسابيع.. وهـو يشـاهد الأحـداث من بعيد.. دون التدخل.. ودون المشاركة.

بقى متفرجاً على ثمار عمله طوال خمسة عشر عاماً وهي تضيع منه.. كل الشقاء والغربة.. كل شيء.. يذهب لخليل الساعي وعفاف الممرضة.

والدته تقول في حسرة: يا رب ما يوريهم خير..

ثم تهمس لزوجها: رزق الهبل على المجانين!

أثاث بيته يباع أمامه.. كل شيء.

لم يبق لزوجته سوى دبلة الزواج.

أغمض عينيه في أسى.. لا يريد أن يرى عفاف وخليل طالما في صدره قلب ينبض.. اللصوص!

لا.. لقد أخطأ.. استسلم لهما.. عليه أن يوقف هذه المهزلة..

فات الأوان.

وجد نفسه يجر حقيبة كبيرة ويرحل إلى بيت أبويه.. مرة أخرى.. وكأن كل ما فات لم يكن.. عاد لا يملك شيئاً.

دخل الحجرة.. بقى صامتاً لا ينطق.. دخلت عليه زوجته.

- علاء.. كنت أريد أن..

قاطعها : لا أريد أن أتكلم الآن يا رانيا.. أتركيني وحدي أرجوك.

- أين أذهب؟ والدتك في غرفة المعيشة.. لا يوجد سوى هذه الغرفة لنا

- حسنا لا تتكلمي إذن.

قالت مسرعة: أريد أن آخذ رأيك في موضوع يخص الأولاد.

ما يثير أعصابه في زوجته إنها لا تفهم أبداً أن الإنسان يحتاج أحياناً البقاء مع نفسه.. أبداً.. لا بأس..

- نعم يا رانيا.

- تكلمت مع رشا الآن.. بنتها عندها سائق يأخذها إلى المدرسة صباحاً ويأخذها من المدرسة في الثالثة.. ما رأيك.. نستعمل نفس السائق لأحمد ورامي؟

هز رأسه بالإيجاب.

***

لم يكن يريد أن يرى أحداً ولا أن يسمع شيئاً.. ولم يعد عنده أي خصوصية.. يفتقد خصوصيته.. في هذا البلد يفتقد خصوصيته.

بعد مرور حوالي شهر.. دق المحامي جرس الباب أخيراً.

قال في فرح: الحمد لله يا دكتور علاء.. الأمر انتهى.. الشهود اعترفوا بكل شيء وعبد الكريم سيحاكم هو وعايدة بالطبع.

خرجت زغرودة من فم أمه.. ابتسمت زوجته في ارتياح.. ولم ينطق هو!

قالت زوجته مسرعة: متى يستطيع العودة إلى عمله؟

- من الغد إن شاء الله.. مبروك يا دكتور.

دخل حجرته.. أحاط رأسه بيديه ولم ينطق.. ولا يدري بماذا يشعر..

إمتزجت المشاعر داخله.. كما كانت تمتزج الروائح الآتية من البحر في أنفه..

دخلت زوجته وقالت في هدوء وكأنها تقرأ أفكاره: لا أريد أن أعرف مشاعرك الآن.. غداً.. أخبرني بماذا تشعر غداً..

لم ينم ليلته.. ولم تنم ليلتها.. ولكنهما لم يتكلما.

***

في الصباح شعر وكأنه ذاهب إلى المدرسة لأول مرة.. خوف.. حرج.. توتر.. لم يتكلم كثيراً مع زوجته.. قبّل أولاده في حب وانطلق في طريقه.. سار إلى عمله.. يحب السير في الإسكندرية خاصة في الصباح.. عندما يمتزج السحاب بالشمس والقمر.. لفحة الهواء الباردة .. الأطفال وهم يجرون إلى مدارسهم في حماس لا أحد يعرف في خوف أم ثقة.. النساء.. يسرن في خطى ثابتة لعملهن.. معظمهن محجبات..

يرتدن العباءات الملونة بكل ألوان الطيـف.. ألـوان وألـوان.. الرجـال يسيرون في صمت وشيء من التجهم إلـى عمـل مـا.. الأتوبيسـات.. السيارات.. صفير القطار.. صوت الترام القوي.. الآباء والأمهات يودعون أولادهـم فـي ترقـب وفـرح.. الهـواء الممتـزج بعـادم السـيارات ورائحة الأشجار البريئة.

الكل يتحرك في سرعة.. وامتزاج.. غريب..

صوت قبقاب السيدة التي تحمل طفلها لتدخل به المستشفى مـن أجـل التطعيم.. سمينة.. ملامحها غليظة.. وبها قوة غريبة.. لم يرها من قبـل.. تتباطأ وكأن عمرها طويل وتريد أن تملأ أيامها بالسير.. نظرتهـا مليئـة باللامبالاة والجرأة.

كان يرى كل هذا لأول مرة.. من هؤلاء؟

أهله؟ أيعرفهم؟

يعرفهم أم لا؟

هل هو واحد منهم إذن؟ وما علاقته بالسـيدة التـي ترتـدي القبقـاب وتسير في بطء؟

ما علاقته ببائع الحلوى الذي ينتظر خارج المستشفي في صبر خـروج الطفل المريض مـن المستشـفى.. ولا يـدري.. هـل سـيخرج أم لا.. وإذا خرج.. هل سيشتري الحلوى؟

لماذا يستمر هؤلاء كلهم في الحياة؟ ماذا يريدون؟

أن يعيشوا؟

كيف؟

فقط أن يعيشوا؟

والحرمان؟

ليس بيدهم.. قوة غريبة تحركهم.. تدفع بهم ...

رائحة الفول المدمس والفلافل تسيطر على كل الروائح.

دخل من الباب..

تسلق السلم.. ما إن دخل إلى قسم الباطنة والقلب حتى رأى زملاءه.. يهرولون إليه.. يهنئونه ويصافحونه..

- ألف مبروك يا علاء.. حمد الله على السلامة.. الحق ظهر يا دكتور.

دخل حجرته.. شعر برغبة في الجلوس على مكتبه لدقائق قبل البدء في العمل.. مر كل شيء بسلام..

نظر أمامه.. وجه جميل يعرفه جيداً.. إبتسم قائلاً: أهلاً يا چيهان.

عيناها مليئتان بالاحترام.. والحب.

مدت يدها لتصافحه.. صافحها..

- حمد الله على السلامة يا علاء.

- الله يسلمك يا چيهان.

إبتسمت وقالت في رقة: تشرب شاياً معي؟

رد لها الإبتسامة.. ثم نظر إلى الخزانة.. فتحها.. الفنجان لم يزل موجوداً.. فنجانه.

شعر بشيء من الراحة..

دخل الساعي وقال في فرح: شاي بالحليب يا دكتور؟

هز رأسه بالنفي.. ثم أعطاه الفنجان: شاي بالحليب للدكتورة چيهان وشاي ثقيل.. بدون حليب وبثلاث ملاعق سكر لي.. في كوب!

نظر له الرجل في دهشة!

أطالت چيهان نظرها إليه.. تغير.. تراه قد تغيـر.. وتلاشـت نظـرة الحب.. كانت تعرفها.. لم تكن تريد منه شيئاً.. فقط كانت تبحث عنهـا... لم تجدها.

قال وقد بدأ يشعر بشيء من الفرح: كيف حال المستشفى يا چيهان؟

قالت في رقة: لا أدري.. الآن أنت هنا ولذا فستصبح في أحسن حال.

ابتسم وهو يخرج أوراقه من الخزانة: شكراً يا چيهان.

- انك طبيب ممتاز.

- وانت أيضاً طبيبة ممتازة.

قامت وهي تقول: لذا لن أبقى هنا كثيراً!

نظر لها في دهشة.

- سأعود إلى بريطانيا يا علاء.. مكاني هناك.. وأنت؟

لم يكن يتوقع سؤالها.. فاجأه سؤالها.. ولـم يكـن يملـك الإجابـة.. هل كان يملك الاجابة؟

- أنا؟

- نعم هل ستعود إلى بريطانيا؟

- تعنين.. هل سأرحل إلى بريطانيا؟

- آه.. العودة فقط لمصر؟

- رحلت إلى بريطانيا ثم عدت إلى مصر.. الإنسان يعود إلى المكـان الذي كان فيه من البداية.. من بداية البداية.

لم يعطها إجابة.. ولكنها كانت تعرف الإجابة.. تراها في عينيه..

جاء الساعي بالشاي.. نظرت له في دهشة.. شرب رشفتين ثم قام في حماس إلى غرف المرضى..

سعادة غريبة بدأت تغمره.. فخر واعتزاز كان قد نسيهما منذ زمن..

دخل إلى حجرة ممتلئة بالمرضى.. نظر إلى أوراق أول مريض.. رجل في الخمسينات نائم على السرير.. وتجلس بجانبه زوجته وابنته.. يضحكان ويضعان البقلاوة في فمه.. نظر إلى الرجل.. ثم إلى الأوراق وقال في دهشة: عم علوان.. ذبحة صدرية؟

هز الرجل رأسه في لامبالاة.. قالت زوجته وهي تمد يدها بالبقلاوة لعلاء: تفضل يا دكتور.. تصور كنا في مطعم سمك.. ثم فجأة بدأ علوان في الصراخ.. مسكين.. الإسعاف جاءت به إلى هنا.. ولكنه بخير الآن كما ترى.. متى سيخرج.. تفضل يا دكتور.

قال في صرامة: شكراً.

ولم يأخذ شيئاً.. نادى على إحدى الممرضات: جهزي العناية المركزة.

بدأت السيدة في الصراخ: يا لهوي..

قال في قوة: لو صرخت هكذا ربما يموت.. تريديه أن يموت.. زوجك مريض.. كان يجب أن يكون في العناية المركزة.

قال الرجل في ضعف: ولكني بخير الآن.

لم يجب.. قال للممرضة من جديد: عندما يأتي مريض بالذبحة يذهب إلى العناية المركزة.. ألا تعرفين هذا.. من الطبيب المسئول؟..

هزت الممرضة رأسها بالإيجاب: حاضر يا دكتور.. أمرك يا دكتور.

في لحظات تلاشت من ذاكرته كل الأحزان.. كل الظلم.. كيف ينسى الإنسان كل شيء في لحظات هكذا؟

إستمر في العمل وكأنه يرتوي بعد أن ازداد بـه العطـش.. يرتـوي ويرتوي.. يشرب ويشعر براحة غريبة..

خرج من المستشفى إلى الجامعة.. ومن الجامعة.. إلى شاطيء البحر..

أخذ نفساً عميقاً؟ رائحة البحر اليوم رائعة.. الملـح المـنعش يطغـي على كل شيء.. أخذ نفساً ونفساً آخر.. كيف يعيش دون أن يستنشق رائحة البحر كل صباح؟ وهل يستطيع؟

تنهد في فرح وتعب وشجن وألم وغيظ وغضب..

وسار في هدوء إلى بيته.

عاد إلى بيته متعباً.. متعباً جداً.. والنشوة تملأ صدره.

ورائحة البحر المنعشة تملأ أنفه..

إرتياح غريب لم يتوقعه.

تفحصت زوجته وجهه ثم ابتسمت في ارتياح.

دخل حجرته .. دخلت وراءه وقالت: هل أنت سعيد اليوم؟

هز رأسه بالإيجاب.

إبتسمت في حماس وقالت: أمازلت تتذكر الطب؟

قال في ثقة: كما أتذكر إسمي.

نظر كل منهم للآخر.. لم يكن يعرف كيف يصف مشاعره تجاه تلـك الفتاة المصرية البريئة الجريئة.. فقط تذكر كلمة رقية المنيسي.. "شكرا".. وهي.. كانت تشعر بأن ابنها حصل على الثانوية العامة بمجمـوع مائـة فئ المائة ودون دروس خصوصية..

شكراً يا رانيا.

إبتسمت في فخر.

تمدد على السرير وهو لم يزل يمسك بيدها.. وضع رأسه على الوسادة في ارتياح وأخذ يداعب وجنتها بيده الأخرى في حنان.. ولم ينطق.

كانت تنظر له في فخر وحب واشتياق.

شعر بالباب يفتح فجأة.. ووالدته تدخل.. نظرت لهما في شـــيء مـــن التهكم، شيء من المكر وقالت: تريد أن تأكل شيئاً يا علاء.. بل يا دكتور؟

- شكراً يا ماما.

مصمصت شفتيها قائلة: لن تأكل اليوم إذن.. ستضعف يـــا حبيبـــي.. لن تنفعك الرومانسية.. الرومانسية لا تملأ البطون.

إبتسمت زوجته وهي تربط نظرها بالأرض ولم تنطق.

قال في ترجي: سآكل يا ماما.. بعد ساعة ربما.

قالت وهي تمسك بالباب: حسنا سأجهز الأكل بعد ساعة.

خرجت وأغلقت الباب وراءها.

همس لزوجته: ألا يوجد مفتاح لهذه الحجرة؟

هزت رأسها بالنفي.

قال في يأس: لا توجد خصوصية في هذا البيـــت.. لـــم يعـــد عنـــدنا أي خصوصية..

إبتسمت في صمت.

قال في تهكم: علينا أن نبدأ في الادخار من الآن.

- من أجل شراء شقة جديدة؟

- من أجل شراء براءتي في المرة القادمة!

ضحكت وقالت: دمك خفيف يا عـلاء.. تضـحك علـى مصـائبك.. أصبحت مصرياً إذن؟

- أنا مصري يا رانيا.

- لا أدري.. كنت أظنك.. تشاهد كل شيء دون أن تشارك في شيء.. وكأنك متفرج.. يشاهد مسرحية.. الآن.. أراك مصرياً.. لا أعرف لماذا.. علاء.. أمازلت تريد الـذهاب إلـى بريطانيـا؟ علينـا أن نفكـر جيـداً فالمدارس على الأبواب و..

قاطعها في حسم: لا أريد الـذهاب إلـى بريطانيـا الآن.. بعـد كـل ما فعلت.. بعد أن اشتريت حريتي عليّ أن أستمتع بها هنا.. عليّ أن أبقى حتى أستعيد كل ما ضاع مني.

- تقصد المال؟

- كل شيء.

- تحدٍ إذن؟

- ربما.. دين في رقبتي.. دين لي ودين عليّ.. سأبقى لأستعيد وأعيد.

قبلت خده وقالت: أحب قوتك وذكاءك.

نظر لعينيها من جديد.. واسعة.. متحدية.. قوية.. أمسك بيدها وضعها على فمه.. قبّلها.. ثم أبقاها على فمه.. شعرت بأنفاسه تسري في عروقها.. وهمس: وأنا..

قاطعته: لا تقل أحبك.. أتشاءم من هذه الكلمة.

قال في براءة: لم أكن أنوي أن أقولها.. كنت سأقول شيئاً آخر.. أنا أريد أن أقضي عمري معك.. لأنتقم منك على ما فعلتيه بي.

قالت في براءة: وماذا فعلت؟

– كل إلحاحك.. واستفزازك.. ورقتك.. وقوتك.. وجنونك.. وجمالك.. آه.. رانيا...

– نعم.

– ماذا سنفعل هذا العيد؟

– كعك بالطبع.. ولكن والدتك ستراه.. والجيران.. وأخوك وزوجته.."عينها وحشة".. لا بأس.. ليس لدينا خيار.

– تريدين شيئاً هذا العيد؟

– كل ما أخذته مني.. أريد سيارة.. وذهباً وشقة.. و..

صمتت واقتربت منه وهمست: فقط كنت أريد شيئاً واحداً وأعطاه الله لي وأنت؟

قال في ثقة: كنت أريد نفس الشيء.

مايو ٢٠٠٥

مكتبة نوميديا 201
TELEGRAM@NUMIDIA_LIBRARY

قالوا عن "رائحة البحر":

"رائحة البحر تشي بقدر كبير من النضج والوعي بأصول الكتابة، وتتميز بقدرة لافتة على التدفق في الحكي، والخبرة بتشكيل النماذج وإدارة المواقف وخاصة في الكشف عن أسرار عواطف المرأة وتقلباتها وهواجسها الداخلية وذبذبات علاقتها بمن ترتبط بهم وكيف تتراوح بين الحب المفرط والكره المفاجئ، كما تعرض لحالة خاصة من علامات تدهور السلوك الجامعي وانتصار الفساد في المرحلة الأخيرة."

د. صلاح فضل، الأهرام

"رواية تقرأ دفعة واحدة وبشغف."

آمال فلاح، باريس

"ريم بسيوني في تصويرها للمكان تشبه أبرع مصوري الفوتوغرافيا الذين يعتنون باللحظة الخاصة واللقطة النادرة يمكننا اكتشاف ذلك ببساطة في وصفها لشوارع الاسكندرية. وبنفس الحرفية تصف أجواء لندن وشوارعها. ريم بسيوني نجحت في رسم شخصيات روايتها باقتدار."

د. سمير محمود، الأهرام المسائي

- فازت المؤلفة بالمركز الأول في جائزة ساويرس للأدب عام ٢٠١٠ عن رواية "الدكتورة هناء".
- حصلت في عام ٢٠٠٩ على جائزة أحسن عمل مترجم في أمريكا عن رواية "بائع الفستق" من مركز الملك فهد لدراسات الشرق الاوسط. وتعتبر هذه أكبر جائزة للأدب العربي في الولايات المتحدة الأمريكية.
- تعمل أستاذة للأدب واللغة العربية بجامعة جورجتاون بالولايات المتحدة الامريكية. وترأس الآن قسم الدراسات العليا بالجامعة. لها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية. ولها أربع روايات صدرت كلها في عدة طبعات.


ISBN: 978-977-450-029-9



تأسست عام ١٩٠٠

www.boustanys.com